

تُراثُ القادِريَّةِ

(٢)

عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي

بَارِئُ اللَّهِ الْأَشْهَبِ

تأليف

د. يُوْسُفُ مُحَمَّدُ طَهَّ زَيْدَانِ

وَلَدُ الْحَيْدِ

بِئْرُوت

عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِي

بَارَ اللَّهُ الْأَشْهَبَ

مَمَّعِ الحَقْوَق مَحْفُوظَة لِدارِ الجِئِل

الطبعة الأولى

١٩٩١-١٤١١ م

الإهداء...

إلى شيخي
مصطفى حلمي القادري

يوسف زيدان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَهْلَ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا.. وَيَا أَهْلَ السَّمَاءِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)

أَنَا مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ..

أَنَا.. لُبُّ بِلَاقِشِرْ

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ الْخَلْقِ

بَعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

فَلَا تَقِيسُونِي عَلَى أَحَدٍ..

وَلَا تَقِيسُوا أَحَدًا عَلَيَّ

عبد القادر الجيلاني

(١) سورة النحل، آية ٨.

مقدمة

لم تهتم أمة بتاريخ رجالها، مثلما اهتمت أمة الإسلام. ولقد ظهر ذلك الاهتمام جلياً، في تلك القائمة الطويلة من كتب الطبقات وتراجم الرجال. فبعضها يترجم لأعلام الرجال عبر عدة قرون، كما نجد في [سير أعلام النبلاء] للذهبي؛ وبعضها يقتصر على تراجم أهل القرن الواحد، كما نجد في [الضوء اللامع بأعيان القرن التاسع] للسخاوي؛ وبعضها يخص طائفة معينة من الرجال، كما نجد في [الكواكب الدرية في مناقب الصوفية] للمناوي؛ وبعضها يترجم لشخصية واحدة، كما نجد في [الرحمة الغوثية في الترجمة اللبئية] لابن حَجَر.

ويبدو أن عناية علماء المسلمين بالسير والتراجم، قد انطلقت في الأساس من مقتضيات [علم الحديث النبوي] ثم تزايدت هذه العناية وتكثفت بفعل نشاط المؤرخين، مما خلف في النهاية هذا اللون الفريد من التأريخ الذي يمكن لنا أن نسميه: علم تاريخ الرجال.

والإمام، محيي الدين عبد القادر الجيلاني، من الرجال الذين توقفت عندهم كتابات المؤرخين، فخصّه الكثيرون بترجمات مفردة تتبع أخباره وتفصيل حياته وكراماته، وخصّص له بقية المؤرخين مواضع في كتبهم، حتى

أننا لا نجد واحداً من كتب أعلام الرجال ووقائع الزمان، إلا وفيه ترجمة - قد تطول أو تقصر - للإمام الجيلاني . . وهذا ليس مقصوراً على مؤرخي التصوف فحسب، وإنما نراه أيضاً عند غيرهم من المؤرخين، مما يدل على المكانة المميزة التي يحتلها الإمام الجيلاني في تاريخ الإسلام.

* * *

والكتاب الذي بين أيدينا، يتناول شخصية الإمام الجيلاني وجوانب المنحنى الصوفي الذي مرَّ به . . وليس الغاية منه مجرد سرد وقائع حياة الإمام، وإنما نحاول عبر صفحاته مناقشة العديد من القضايا التي تطرحها شخصية الإمام الجيلاني أمام الباحث في التصوف .

وهذا الكتاب هو القسم الأول من المجموعة التي جعلناها بعنوان [تراث القادرية] وهي خلاصة سنوات من البحث، انتهت بحصولي على درجة الدكتوراه بموضوع يدور حول دراسة وتحقيق آثار الإمام الجيلاني وطريقته الصوفية . فهذا الكتاب هو أول المجموعة، ثم يأتي ثانياً بعنوان [الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر] وكلاهما يصدر عن دار الجيل ببيروت . . أما الثالث، فهو [ديوان عبد القادر الجيلاني : القصائد الصوفية، المقالات الرمزية] وهو تحقيق لمجموعة نصوص شعرية ونثرية، وقد صدر عن مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة؛ وربما نقوم بتحقيق مجالس الإمام المخطوطة [جلاء خاطر في الظاهر والباطن] فتكون هذه المجموعة في جملتها؛ محاولة مخلص للتعبير عن قدر الإمام الجيلاني ومكانته الصوفية، وما قدّمه للتصوف والصوفية من مفاهيم، نراها لا تزال صالحة للأخذ بيد المسلم المعاصر، الراغب في تخطي الهوة الفاصلة بين الفناء والبقاء . . بين عالم الخلق وعالم الحق .

ولما كان من العسير أن نتحدث عن الإمام الجيلاني بغير إسراف، ولما

كانت كل محاولة لوضع تصورٍ تامٍّ لشخصية الإمام هي محاولةٌ متهمّةٌ بالتقصير. . فإننا سوف نُشير إلى حقائق حياته وتجربته الصوفية إجمالاً، مع ذكر هذه القائمة المطولة من الترجمات المفردة التي أطالت وأسهب في الحديث عن الإمام. . وإن كان ذلك لن يمنعنا من التوقُّف عند بعض التفاصيل التي من شأنها أن تسهم في فهم تصوفه.

والله الموفق

* * *

مفهوم التصوف

حين انتويت وضع فصلٍ تمهيديٍّ، يكون كالمدخل لفصول الكتاب، وقفت متردداً بين موضوعين . . الموضوع الأول [عصر الجيلاني] والموضوع الآخر [مفهوم التصوف] فكان الاختيار الآخر. فعلى الرغم من اعتياد أغلب الباحثين، أن يقدّموا لدراسة الشخصيات بالمباحث عن العصر الذي عاشت فيه، فهم يعدّون ذلك مدخلاً مهماً لفهم جوانب الشخصية التي يدرسونها - إذ كل إنسان صدى لعصره - فالعصر هو البوتقة التي تتم فيها تفاعلات الفرد مع الواقع .

ومع اتفاقنا مع القائلين بهذا الرأي، إلا أننا لم نوافق عليه تماماً فيما يخصّ الشخصيات الصوفية. فالصوفي يبدو في حقيقة حاله، متجاوزاً للعصر الذي يعيش فيه! فالتجربة الصوفية لا تعترف في تطوراتها الروحية بأحكام الواقع والزمن الذي يحيا فيه صاحبها، فهي تجربة مفارقة؛ تضع المعراج مقابل الواقع، والوقت مقابل الزمن . . وإذا كان للتصوف، كل بضعة قرون، مذاقٌ خاصٌ يميزه؛ فالمرجع في ذلك إلى تراكم التجارب الصوفية السابقة، وتراكم الثقافة التي يتم من خلالها التعبير عن تلك التجربة الذوقية الفريدة التي يمرُّ بها الصوفي في كل عصر؛ ولو كانت طبيعة العصور وحدها، مقياساً

لفهم التصوف، لما استطعنا تفسير تجربة وكتابات النَّفري [محمد بن عبد الجبار بن الحسن، صاحب المواقف والمخاطبات] فهو يبدو متجاوز للقرن الخامس الهجري الذي عاش فيه، وأكثر قرباً من ابن عربي الذي عاش في عصرٍ تالٍ . . لهذا، فقد رأينا أن إلقاء الضوء وحقيقته، ربما يكون أكثر فائدة ونحن بصدد الدخول إلى عالم الإمام عبد القادر الجيلاني . أما طبيعة العصر الذي عاش فيه، فلسوف نتعرض لها في سياق الحديث، ببضعة إشارات موجزة .

أصل التسمية:

أفرد مؤرخو التصوف ودارسوه فصلاً عديدة للبحث في أصل كلمة [التصوف] خلال مجموعة تعريفات ومفاهيم، تسعى في جملتها للكشف عن طبيعة هذه التسمية واشتقاقاتها ومصادرها. ودون الإسهاب في عرض (التعليلات) المتعددة لكلمة التصوف، سوف نجملها فيما يلي:

* القول بكون التصوف مشتقاً من الصوف؛ الذي كان رداء الأنبياء والزُّهاد، والذي يدلُّ على التقشُّف.

* القول بكونه مشتقاً من الصفاء؛ لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات، ويؤهلها للترقي في طريق الأحوال والمقامات.

* القول بكونه مشتقاً من الكلمة اليونانية (سوفيا) وتعني الحكمة؛ باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلهيين، الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة اللدنية.

* القول بكونه نسبةً إلى أهل الصُّفَّة؛ وهم جماعة من فقراء الصحابة، انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة، وكان النبي ﷺ لا ينكر عليهم ذلك.

* القول بكونه نسبةً إلى صوفة؛ وهي قبيلة يمنية، كانت تُجيز الحجيج وتخدم الكعبة، فصار الاسم علماً على الانقطاع لخدمة الله .

ومع ما تثيره هذه الأصول المتعددة للتسمية من نقاشٍ في كتب المؤرخين والدارسين^(١). فإن صاحب الحلية [أبو نعيم الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية] يضيف أصولاً أخرى للتسمية، تزيد من إثارة هذه القضية، فيقول: «واشتقاقه من حيث اللغة من أحد أربعة أشياء؛ من الصوفانة وهي بقلةٌ قصيرةٌ. أو من صوفة القفا وهي الشعرات النابتة في متأخره، أو من قبيلة صوفة، أو من الصوف المعروف»^(٢) . .

وقد حدا ذلك الخلاف حول اسم التصوف ببعض الدارسين إلى مناقشات مطولة، أرهقت المفهوم الواضح للتصوف، وتكلفت تحميله ما لا يطيق، بهدف ترجيح أصلٍ من أصول التسمية على غيره. . وفي مقابل ذلك، استغنى بعض الباحثين المعاصرين عن اسم [التصوف] وراحوا يعرضون لمفاهيمه تحت أسماء أخرى: الطريق الروحي، الاتجاه الأخلاقي، الجانب الذوقي، الزهد. . وقد فعلوا ذلك تلافياً للخلاف حول طبيعة الاسم واشتقاقاته، وتجنباً للمفاهيم الخاطئة التي علقته به، وترضيةً لبعض البلدان التي تكره التصوف ولا تسمح بالحديث عنه - لأسبابٍ في جوهرها: سياسية .

عموماً، فنحن نرى الخلاف حول طبيعة اسم التصوف، خلافاً لا طائل تحته. فالأرجح عندنا ما قاله القشيري من أن هذا الاسم لا يشهد له من حيث اللغة قياسٌ ولا اشتقاق، فالأظهر أنه كاللقب^(٣). . فلنطرح الخلاف حول

(١) راجع الفصول الخاصة بتسمية التصوف واشتقاقاته في المصادر والمراجع التالية:
التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي/ اللمع، للسراج الطوسي / الرسالة، للقشيري/
كشف المحجوب، للهجويري / نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام [الجزء الثالث] للدكتور
النشار/ المدخل إلى التصوف، للدكتور أبو الوفا التفتازاني . . وغير ذلك الكثير.
(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [دار الكتاب العربي - بيروت] المجلد الأول ص ١٧
وما بعدها.
(٣) القشيري: الرسالة القشيرية [طبعة الحلبي - ١٣٧٩ هجرية]، ص ١٣٨ .

التسمية، ونتجاوزها إلى طبيعة التصوف ذاته، قائلين مع البُستي:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَآخْتَلَفُوا قَدَمًا وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَأَسْتُ أَنْجِلُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فِتَى صَافِي فُصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي^(١)

طبيعة التصوف وتعريفاته:

التصوف روحٌ إسلامية تتخلَّلُ سريرة العبد، فتحمل حركاته وسكناته على جناحي المحبة والإخلاص لله، وتظل ترقى به من أوهام الحياة الدنيوية إلى حقائق العيش الأبدي بقرب الحق تعالى.. ولا يمكن فهم التصوف، خارج إطار التجربة الدينية العميقة، فهو يتولَّد وينمو في القلب، وكأنه حرث التقوى بأرض العبادة. وربما يصطنع البعض تلك النزعة الصوفية في قوله وأفعاله، دون الالتزام بظاهر العبادات والمعاملات التي أمر بها الإسلام، فيكون حاله - كحالنا - غروراً وابتعاداً عن المفهوم الحقيقي للتصوف.

وباعتبار التصوف، شريعةً وحقيقةً.. فهو يقضي بالدخول إلى الحقائق من باب الشرع. فلكل دقيقةٍ شرعية، لطيفةٌ صوفية لا يتسنى للإنسان إدراكها وتذوقها، ما لم يوف الشريعة حقها.. فمن لم يفعل، فهو حاطب الليل الذي لا يأمن الأفاعي، وربما خدعته الأمانى - كما خدعت كثيرين - فخرجت به عن مراده إلى ما لا يهواه. فطريق أهل الحقائق شائكٌ مملوءٌ بالمخاطر، ولولا التزوُّد بمصابيح الشرع وظاهر الشريعة، لانغرست في القلب الأشواك.

وهناك أنماطٌ من التصوف غير الإسلامي، كتصوف الهنود والرهبان والبوذيين. وقد تسمت هذه الأنماط تصوفاً، على أساس أن كلَّ تصوفٍ - كما يقول جوته - علوٌ وارتقاءٌ روحي عن المحسوس. لكن هذا التوسُّع اللفظي لكلمة التصوف، حتى تشمل اللفظة على متشفي الديانات الأخرى

(١) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة [عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية]، ص ٢٨.

وَزُهَادَهَا، تَوْسَعُ مِنْ شَأْنِهِ التَّضَلِيلِ وَالتَّعْمِيَةِ . . فَالْأَصُوبُ أَنْ يَقتَصِرَ اسْتِخْدَامَ اللفظِ، عَلَى ذَلِكَ الاتِّجَاهِ الَّذِي رَسَمَهُ أُمَّةُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَمَا دَامَ التَّصَوُّفُ شَرِيعَةً وَحَقِيقَةً، فَكِلَاهُمَا دَاخِلٌ فِي إِطَارِ الْإِسْلَامِ . أما ما عدا ذلك من نزعات روحية وتزهدية في الأديان الأخرى، فهو يقوم على اعتقادات لا يعترف بها الدين الإسلامي، كفكرة (النرفانا) عند الهنود، وعقيدة (التجسد) في التراث المسيحي، وغير ذلك من العقائد التي تنطلق منها النزعات الروحية عند أهل الملل والأديان . . ولا تتفق مع (الشريعة) الإسلامية .

ويمكننا تحديد مفهوم التصوف [الإسلامي] من خلال هذه المجموعة المختارة من تعريفات التصوف التي ترسم الملامح الأساسية لذلك النزوع الروحي . . فمن هذه التعريفات التي يحشدها القشيري في الرسالة، قول معروف الكرخي: (١) «التَّصَوُّفُ، الْأَخْذُ بِالْحَقَائِقِ وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي الْخَلَائِقِ» . . فلنبجُر في أعماق هذا التعريف:

للأشياء على الحقيقة، ظاهرٌ وباطنٌ . وغالباً ما يكون الظاهر من الأشياء مخادعاً وباطلاً! ففي أثنى الأشياء، تبدو لنا الظواهر في قالبٍ باطلٍ يحجب الحقيقة؛ فهذه المواد التي تملأ من حولنا الوجود، تبدو في الظاهر ساكنة الأجزاء جامدة الذرات، وهي في حقيقة أمرها كتلة هائجة تموج بالحركة الدائبة والتوتر «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» (٢) وهي لا تنتهي عند ذلك القدر الجزئي الذي يبدو في ظاهرها الساكن . . فقد رأينا

(١) هو عَلمُ الزُّهَادِ: أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، المتوفى سنة ٢٠٠ هجرية، راجع ترجمته في:

طبقات الصوفية ص ٢١ - حلية الأولياء ٣٦٠/٨ - الرسالة القشيرية ٧٩/١ - تاريخ بغداد ١٩٩/٣ - صفة الصفوة ٧٩/٢ - طبقات الحنابلة ٣٨١/١ - وفيات الأعيان ٢٣١/٥ - العبر ٣٣٥/١ - سير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩ - دول الإسلام ١٢٦/١ - مرآة الجنان ٤٦٠/١ - طبقات الأولياء ٢٨٠ - شذرات الذهب ٣٦٠/١ .

(٢) سورة النمل، آية ٨٨ .

الأجزاء تنقسم، والذرات تنشط، حتى أطلَّ الهول. ومن ناحية أخرى، فهؤلاء البشر من حولنا، يفدون ويروحون بملاحم وأردية وبسمات ودموع، ربما لا تُنبئ عما تحت طيّات الملاحم من حقائق. وقد نطلع على بواطن أشدَّ الناس تأثقاً وأحلامهم وجهاً، فنمتلئ من تلك البواطن رعباً، وربما وُلِينَا منهم فراراً. القضية إذن: ظاهرٌ وباطن، أشكالٌ وحقائق.

وفي أمور التعبُّد محوران، الأول محور الشكل الظاهر من العبادة، وإطاره الحركات والسكنات. والمحور الثاني، ذلك المعنى الباطن من العبادة، حيث انفعال القلب بتلك الحركات والسكنات، ودخوله عالم الأسرار الكامنة خلف الشكل الظاهر من العبادة. . وإلى هذا يشير النصف الأول من تعريف معروف الكرخي (التصوف الأخذ بالحقائق) فالتصوف غوصٌ دائمٌ وراء ما يحتجب وراء الأشكال التعبُّدية الظاهرة. وما دام ذلك الغوص متوالياً، فلا تزال حقائق التعبُّد متواترة، حتى تتكشَّف لبصيرة الصوفي أسرار الحقائق، وهنا يعترضنا السؤال: هل تنوب الحقائق الباطنة عن الأشكال الظاهرة من العبادة؟ وهل تغني الحقيقة عن الشريعة؟ وهل يمكن إسقاط تلك التكاليف الشرعية؟. . على ذلك يجيب أئمة التصوف بالنفي القاطع، فليس ثمة ولوج إلى الحقائق إلا من باب الظواهر، ولو انغلق الباب لاستحال الولوج والكشف. وهنا أمرٌ دقيقٌ وخطيرٌ، أفصح عنه الحلَّاج حين سُئل سؤالاً خبيثاً عن مذهب الباطن؛ قال الحلَّاج:

بَاطِنُ الْبَاطِلِ أَمْ بَاطِنُ الْحَقِّ؟ أَمَّا بَاطِنُ الْبَاطِلِ فَظَاهِرُهُ
أَقْبَحُ مِنْ بَاطِنِهِ، وَبَاطِنُهُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرِهِ. وَأَمَّا بَاطِنُ
الْحَقِّ، فَظَاهِرُهُ الشَّرِيعَةُ، فَمَنْ عَمَلَ بِظَاهِرِهَا، انْكَشَفَ لَهُ
بَاطِنُهَا^(١).

فالتصوف على هذا النحو، أخذ بالحقائق من مأخذها الصحيح. وهو أيضاً

(١) الحلَّاج: أخبار الحلَّاج، نشرة ماسينون وكراوس (باريس ١٩٣٦)، ص ١٩.

- كما يردُّ في الشُّقِّ الثاني من التعريف - يَأْسُ مما في أيدي الخلائق . . وهنا إشارة إلى الفرق بين ما هو بيد الناس، وما هو بيد الله . الناس بأيديهم الوهم والزوال والمادة، والله بيده مقاليد كل شيءٍ باقٍ وحقيقيٍّ ودائمٍ؛ الخلائق لا يملكون إلا ما يناسب حقيقتهم الفانية، والله يملك ما يليق بجلاله .

فلما كان التصوف يرمي بالقشر ويأخذ اللَّبَّ، ويتجاوز تلك الأشكال والرسوم إلى نخاعها؛ فهو يَأْسُ مما في أيدي الخلائق، وتعلُّق بما في قدرة الله .

وثمة تعريفٌ للشُّبلي^(١) يقول فيه: «التَّصَوُّفُ، الْجُلُوسُ مَعَ اللَّهِ بِلَا هَمٍّ» . . وكأنما الشُّبلي يستكمل تعريف معروف، ويفصح عن بعض جوانبه . فما دام التصوف وصولاً للحقائق وخلصاً من انشغال الخليفة والخلائق، فهو سقوط الهموم الدنيوية من القلب، وعكوف العبد على أوامر الله ونواهيه . وليس هناك ما يعوق امتثال الأمر واجتناب النهي، إلا هموم العبد وأوهامه الباطلة وتدبيره الرخيص؛ فإن خلص العبد من ذلك، جلس مع الله بلا هَمٍّ ولا انشغالٍ بالسوى .

ومن الجليّ أن قول الشُّبلي [الجلوس مع الله] لا يراد به أية معانٍ جسّية . فهذا الجلوس، اصطلاحٌ صوفيٌّ يشير إلى دوام الطاعة لله؛ فكلما تعمّقت طاعة العبد وصدقت، كلما ازداد قُرباً من ربه، وجلس بين يدي مولاه على بساط الامتثال لأوامره ونواهيه .

وإسقاطُ الهمِّ من القلب، يكون من وجوهٍ كثيرةٍ . أولها إسقاطُ همِّ

(١) هو شيخ الطائفة: أبو بكر جعفر بن دُلف بن جحدر الشبلي، المتوفى سنة ٣٣٤ هجرية . راجع ترجمته في:

طبقات الصوفية ٨٢ - حلية الأولياء ٣٦٦/١٠ - تاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ - الرسالة الفشرية ٢٥ - المنتظم ٣٤٧/٦ - وفيات الأعيان ٢٧٣/٢ - العبر ٢٤٠/٢ - مرآة الجنان ٣١٧/٢ - سير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٥ - البداية والنهاية ٢١٥/١١ - النجوم الزاهرة ٢٨٩/٣ - شذرات الذهب ٣٣٨/٢ - ديوان الشبلي، تحقيق د. كامل الشيبلي .

الغد، وذلك هو التوكل في مفهومه الصوفي العميق، فالصوفية يقولون بالهمة والعمل، لكنهم يحذرون من المنيّة والأمل، خوفاً من سيطرة الأمانى والآمال على العبد، حتى تربطه بوجوده الجسّي . . لذا، نجد بعضهم لا يسمحون للصوفي بتأميل الحياة على الأرض لأكثر من أربعين يوماً، وبعضهم يُقصر الأمل في العمر إلى ثلاثة أيام، والبعض لا يأملون إلا في الوقت الحال فقط، بلا تأميل للحظة التالية . . وهذا، قمة إسقاط همّ الغد، ومنتهى تفرغ القلب لله تعالى .

والوجه الثاني لإسقاط الهمّ، يكون بيقين الصوفي في أن ما يملكه زائل لا محالة، فالتعلق بالزائل حمق ورعونة . وذلك لا يعني أن الفقر - بمفهومه الشائع - هو شرط من شروط التصوف؛ فالمراد هنا: أن يملك الصوفي الأشياء، ولا تملكه! وعندما جاء بعض مريدي الإمام الجيلاني يشكون إليه إقبال الدنيا عليهم، وكثرة المتاع الدنيوي، قال لهم: «اجعلوا ذلك في أيديكم، وليس في قلوبكم؛ فلا يضركم» .

ووجه ثالث لإسقاط الهمّ، وهو وجه دقيق لا يصل لمعناه إلا المحققون من الصوفية . . ونعني به: إسقاط همّ الآخرة. فالصوفي يتجاوز الرغبة في الجنة والخشية من النار، إلى الرغبة في الارتقاء إلى مقام المحبة. وهنا تكون كل أفعال العبد إرضاءً للحبيب عز وجل، لا طمعاً في جنته، ولا خوفاً من ناره. وإلى هذا، كانت إشارات رابعة العدوية بقولها إنها: ما عبدته خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، فأكون كأجير السوء - إن عمل طلب الأجر - وإنما عبدته حباً فيه وتقرباً إليه^(١) . . ومن البدهي أن إيمان المُحبّ وعمله، مرتبة أرقى من مرتبة الخائف الراجي .

على هذا النحو السابق، تسقط هموم الدنيا والآخرة من عين قلب

(١) عبارة مشهورة لرابعة، ذكرتها معظم المصادر التاريخية التي أرخت لها .

العبد، ولا تبقى في القلب ذرَّةً إلا وهي عامرةٌ بحبِّ الله، وبهذا يكون:
الجلوس مع الله بلا همّ.

والتعريف الأخير الذي نوره هنا^(١)، لأبي بكر الكتاني^(٢) الذي يقول:
«التَّصَوُّفُ خُلُقٌ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ، فَقَدْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الصَّفَاءِ»..
وهنا لا بد من إيضاح:

للتصوف جانبان أساسيان، الأول يتمثل في الرابطة بين العبد وربّه،
والثاني يتجلى في العلاقة بين الصوفي وسائر الخلائق. وإذا تأملنا التعريفات
الثلاثة في مجملها، لرأيناها تفصح عن هذين الجانبين. لكن التعريف الثالث
الأخير، يركّز بشكلٍ خاصٍّ على المفهوم الأخلاقي في جانبيّ التصوف؛
فهناك الخُلُق مع الخالق، وهناك الخُلُق مع الخُلُق.

وللصوفي مع ربه أخلاق، لعل أهمها الحياء.. فإذا كان الحديث
النبوي يخاطب عموم المسلمين بأن يستحي الواحد منهم من ربه كما يستحي
من صالح جيرانه^(٣).. فإذا كان الأمر كذلك بخصوص عموم المسلمين، فما
بال الأمر بذلك الصوفي الذي تتجلى عليه الأنوار الإلهية آتاء الليل وأوقات
النهار، لا بد إذن من أن يكون حياؤه من الله أعظم، وهو الذي يعبد الله
[كأنه] يراه.. وعلى هذه النظرة، تجري بقية أخلاقيات الصوفي مع ربه.

(١) راجع التعريفات المختلفة للتصوف، في الفصول المخصصة لذلك بالمراجع الآتية: الرسالة
القشيرية - التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي - عوارف المعارف للسهروردي -
المدخل إلى التصوف الإسلامي للدكتور التفتازاني.

(٢) هو سراج الحرم: أبو بكر محمد بن عليّ بن جعفر الكتاني، مات مجاوراً بمكة سنة ٣٢٢
هجريّة. راجع ترجمته في:

طبقات الصوفية ٩١ - حلية الأولياء ٣٥٧/١٠ - تاريخ بغداد ٧٤/٣ - الرسالة القشيرية ٢٦ -

صفة الصفوة ٢٥٧/٢ - العبر ١٩٤/٢ - الوافي ١١١/٤ - سير أعلام النبلاء ٥٣٣/١٤ -

طبقات الأولياء ١٤٤ - النجوم الزاهرة ٢٤٨/٣ - شذرات الذهب ٢٩٦/٢.

(٣) أخرجه السيوطي بلفظ قريب عن أبي إمامة، انظر: الجامع الصغير رقم ٩٧١ - جمع الجوامع
رقم ٣٠٦٣/٢٤.

وللصوفي مع الخلائق أخلاقٌ تستكمل الجانب الآخر من التجربة الصوفية الصادقة . . فهو يخالق الناس بتلك الأخلاق الإلهية، التي ورد في شأنها قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ خُلُقٍ، وَسَبْعَةَ عَشَرَ خُلُقًا، مَنْ جَاءَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). فالصوفي إذا ما سقطت عنه أوصاف العبودية من جهلٍ وطيشٍ وحرصٍ، وغير ذلك من الصفات المذمومة، تتحلَّى نفسه بالأخلاق الربانية الكريمة كالحلم والكرم والرحمة . . ويظل الصوفي - في تعامله مع أهل زمانه - سابحاً في فلك هذه الصفات المحمودة، فلا يصل بها إلى منتهى، وإنما يظل يترقى في كل خُلُقٍ منها، بحسب صدق تجربته الصوفية .

التصوف عند الجيلاني:

سُئل الإمام الجيلاني عن التصوف، فقال: «الصوفي مَنْ جعل ضالته مُراد الحق منه، ورفض الدنيا وراءه، فخدمته ورزقته أقسامه؛ وحصل له في الدنيا قبل الآخرة مرامه، فعليه من ربه سلامه»^(٢) . .

وفي إجابة الإمام تتحدّد الخطوط العامة للتصوف، فالخط الأول هو (العبادة) التي أرادها الحق تعالى من عباده في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣) . . ثم يشير الإمام إلى (ترك الدنيا) ورفضها، حتى تحصل الغاية من الخلق؛ فقد خلق الله الدنيا لتخدم الإنسان، لا لكي يخدمها هو ويلهث وراءها. وبعد ذلك تكون علامة الصوفي الصادق؛ حصول المرام في الدنيا (الرضا) وفي الآخرة (القرب من الله) وها هو سلام الله ينتزل عليه .

ويختتم الإمام كتابه (الغنية) بفصلٍ في التصوف، يزيد فيه الأمر

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو يعلى في مسنده، والبخاري في الصحيح عن عثمان بن عفان، والسيوطي في الجامع الصغير.

(٢) الشنطوفي: بهجة الأسرار، ص ١٢٣ .

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٦ .

توضيحاً وتفصيلاً. فيقول: (١) المتصوف هو الذي يتكلف أن يكون صوفياً، ويتوصل بجهدِهِ إلى أن يكون صوفياً. والصوفي مأخوذاً من المصافاة، يعني عبداً صافاه الحق عز وجل، ولهذا قيل: الصوفي مَنْ كان صافياً من آفات النفس، خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد المذاهب ملازماً للحقائق، غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق..

ثم يعرض الإمام للفرق بين المتصوف والصوفي، فيورد الكثير من خصائص وصفات كُلِّ منهما: المتصوف المبتدي والصوفي المنتهي، المتصوف الشارع في طريق الوصل والصوفي مَنْ قطع الطريق، المتصوف متحمّل والصوفي محمول؛ حمل المتصوف كل ثقل وخفيف، حتى ذابت نفسه وزال هواه وتلاشت إرادته، فصار صافياً، فُسِمِي صوفياً.

ويستند الإمام في تعريفه للتصوف والصوفي، إلى العديد من الآيات والأحاديث النبوية، ومنها ذلك الحديث القدسي الذي قال عنه ابن تيمية إنه أصحُّ الأحاديث التي يستدلُّ بها أهل الولاية عليها، وهو قوله تعالى: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء فرائضي، وإنه ليتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يعقل».

ويشير الإمام - إجمالاً - إلى المراتب التي يقطعها الصوفي في سيره إلى الله؛ فأولها مكابدة النفس والهوى والشيطان، ثم التعبُّد وتصفية الباطن، ثم الخروج عن زخرف الأكوان، والتجوهر لرب الأنام والرضا بقضائه.. يقول الإمام الجيلاني: «ثم يُفتح باب القربى إلى المليك الديان، ثم يُرفع (الصوفي) منه إلى مجالس الأنس، ثم يجلس على كرسي التوحيد، ثم تُرفع عنه الحُجُب ويدخل دار الفردانية، ويُكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا وقع

(١) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق تعالى (طبعة الحلبي) ١٦٠/٢ وما بعدها.

بصره على الجلال والعظمة؛ بقي بلا هو، فانياً عن نفسه وصفاته، عن حوله وقوته وحركته وإرادته ومناه ودُنياه وأخراه، فيصير كإناء بلورٍ مملوءٍ ماءً صافياً. . فحينئذٍ يُسمى صوفياً، على معنى أنه يصفى من التكدر بالخليقة والبريات، وإن شئت سمّيته بَدَلاً من الأبدال، وعيناً من الأعيان، عارفاً بنفسه وربّه! تلك هي - على الإجمال - مراتب الطريق الصوفي، أما تفصيل مراحل هذا الطريق، فقد تناولناه في الكتاب الثاني من هذه المجموعة القادرية^(١). . . والآن، فلنختتم هذا الفصل بتلك العبارات الرمزية التي وصف فيها الإمام حقيقة الصوفي بقوله:

هُوَ مَحْمُولُ الْقَدَرِ، كُرَّةُ الْمَشِيئَةِ، مُرَبِّي الْقُدُسِ، مَنبَعُ
الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ، بَيْتُ الْأَمْنِ وَالْفَوْزِ، كَهْفُ الْأَوْلِيَاءِ
وَالْأَبْدَالِ .. عَيْنُ الْقِلَادَةِ، دُرَّةُ النَّجْرِ، مَنظَرُ الرَّبِّ.

(١) د. يوسف زيدان: الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت) ص ١٥ وما بعدها.

نشأة الجيلاني

اسمه وألقابه:

وفقاً لما اتفقت عليه المصادر الخاصة بالإمام الجيلاني، فهو: محيي الدين أبو محمد^(١) عبد القادر الجيلاني الحَسَنُ الحُسَيْنِي الصُّدِّيقي^(٢)، ابن أبي صالح^(٣) موسى چنكي دوست، بن الإمام عبد الله^(٤)، بن يحيى الزاهد، بن محمد، بن داود، بن موسى الجون^(٥)، بن عبد الله المحض^(٦)، بن الحسن السُّبُط، بن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة [دار الكتب المصرية ١٩٣٥] الجزء الخامس ص ٣٧١.

(٢) نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويمكن الرجوع فيما يتعلق باتصال نسب الجيلاني بأبي بكر الصديق إلى [الشيخ عبد القادر الجيلاني، ليونس السامرائي - مطبعة الأمة، بغداد - ص ٦] أما نسبة الإمام إلى بيت النبوة، فسوف نتعرض لها في الصفحات التالية.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ [المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة] الجزء التاسع، ص ٩٤.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب [مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ] الجزء الرابع، ص ١٩٩.

(٥) الجون في اللغة من أسماء الأضداد، فالجون هو الجمع بين الأسود والأبيض [انظر؛ لسان العرب لابن منظور، بيروت، المجلد الأول، ص ٥٣٧] وقد كان موسى بن عبد الله، آدم اللون. . واشتهر أن أمه كانت تدلّله بقولها:

إِنَّكَ إِنْ تَكُونُ جَوْنًا أَنْزَعًا تُوشِكُ أَنْ تَسْوَدَ هُمْ وَتَبْرَعَا

(٦) المحض في اللغة هو الخالص من كل شيء، وقد لُقّب الإمام عبد الله بهذا اللقب لأن نسبه =

أما عن ألقاب الإمام الجيلاني، فهناك جملة منها اشتهر بها في حياته، بالإضافة إلى ما خلعه عليه أتباعه من ألقاب بعد وفاته. ومن خلال النظر إلى هذه الألقاب، يمكن لنا أن نستكشف العديد من جوانب حياة الإمام وشخصيته وتجربته الصوفية.

وأول هذه الألقاب هو [الجيلاني] أو [الكيلاي] وهي نسبة لموطن مولده (جيلان) وقد عُرف الإمام عبد القادر بهذا اللقب بعد نزوله بغداد، أما في جيلان فكان يُعرف بلقبٍ آخر هو [سبُّط أبي عبد الله] وهو لقبٌ خُلع عليه هناك، لأن جده لأمه: الشيخ أبي عبد الله الصومعيّ الزاهد، هو الذي تولى تربيته. وقد كان الصومعيّ الزاهد من كبار مشايخ جيلان في وقته، وكانت له مكانة روحية متميزة، حتى أن صاحب [البهجة] ينسب له عدة كرامات، يرويها بالإسناد المعنعن المتصل^(١).

وقد انتسب إلى جيلان^(٢) ما لا يحصى من أهل المعرفة في كل فن، فمنهم أبو علي كوشيار بن لياليروز الجيلي الفلكي، وأبو منصور بن جعفر الجيلي فقيه الشافعية، وأبو الفضل أحمد بن صالح الجيلي الحافظ.. وكثيرون غيرهم^(٣). أما في التصوف، فقد انتسب إليها اثنان من أشهر أعلامه: الإمام عبد القادر الجيلاني، الشيخ عبد الكريم الجيلي.

= من جهة الأب والأم خالص من الموالي، فأبوه هو الحسن بن الحسن بن علي، وأمه هي فاطمة بنت الحسين بن علي.

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار [طبعة البايع الحلبي - القاهرة ١٣٣٠ هـ] ص ٨٨، ٨٩.

(٢) جيلان: مجموعة من القرى الفارسية المتناثرة في مروج الجبال الواقعة وراء طبرستان.. انظر؛ معجم البلدان لياقوت الحموي [دار صادر - بيروت] المجلد الثاني، ص ٢٠١.

(٣) ابن حجر: تبصير المتنبه بتحرير المشتبه [الهيئة المصرية العامة] القسم الأول، ص ٢٩٥. وقد درج المؤرخون والجمهور على تسمية من انتسب لجيلان بالجيلاني أو الجيلي.. لكن هناك من يفرّق بينهما باعتبار أنه إذا انتسب الرجل إلى جيلان نفسها، يقال له (جيلاني) وإذا انتسب لأحدٍ من رجالها، دون أن يكون قد وُلد بها، يُقال له (جيلي) والعجم يقولون لكليهما: كيلاني.. انظر؛ فوات الوفيات لابن شاکر [مكتبة النهضة بمصر] الجزء الرابع، ص ٢.

أما أشهر ألقاب الإمام الجيلاني فهو [باز الله الأشهب] ويبدو أن الإمام كان يؤثر هذا اللقب، فقد لُقّب نفسه به في أبيات شعرية عديدة، منها قوله:

أَنَا بُلْبُلُ الْأَفْرَاحِ أَمْلَأُ دَوْحَهَا طَرِبًا وَفِي الْعَلْيَاءِ بَارُ أَشْهَبُ^(١)

كما لُقّب بهذا اللقب معاصروه، ففي بعض أبيات أبي مظفر منصور بن المبارك الواعظ - من معاصري الجيلاني - يقول له:

بِكَ الشُّهُورُ تَهْنِي وَالْمَوَاقِيتُ يَأْمَنُ بِالْفَاطِهَةِ تَغْلُو الْيَوَاقِيتُ
الْبَارُ أَنْتَ فَإِنْ تَقَفَرُ فَلَا عَجَبٌ وَسَائِرُ النَّاسِ فِي عَيْنِي فَوَاحِيتُ^(٢)

والباز لفظة مشتقة من (البزوان) وهو الوثب، وأفصح لغاته (بازي) المخففة، وهو اسم لطائر يصيد الصقور، يعدُّ من أشد المخلوقات تكبراً وأحرها مزاجاً، ويضرب به المثل في نهاية الطيران^(٣). . . ولوجه اشتها الإمام بهذا اللقب حكاية غريبة، نرجى الحديث عنها إلى الفصل التالي حيث نتناول قضية (الجذبة الروحية) في المنحنى الشخصي لحياة الإمام.

ومن ألقاب الإمام لقبٌ أثيرٌ لدى القادرية، يدعون به شيخهم قائلين: شيخ الكل. . . وهو مأخوذٌ في الغالب من عبارة خطيرة قالها الإمام بلسان الولاية في بسط الفتوة، ليفصح بها عن حالٍ عالٍ عاينه، فقال:

الْإِنْسُ لَهُمْ مَشَايِخُ

وَالْجِنُّ لَهُمْ مَشَايِخُ

وَأَنَا شَيْخُ الْكُلِّ^(٤) .

(١) الجيلاني: قصيدة ما في المناهل [ديوان عبد القادر الجيلاني] البيت السابع.

(٢) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٨٢.

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى [دار إحياء التراث العربي - بيروت] الجزء الأول، ص ٩٩. والفاخنة؛ نوع من الحمام البري - والجمع (فواخت) وليس (فواخيت) التي جاء بها الشاعر هنا لضرورة الشعر.

(٤) كتاب المناقب (مخطوط المعهد الأحمدى بطنطا، رقم ١٢٦/٦٨٣) لمؤلف مجهول، ورقة ٧ ب.

وعلى الرغم من تصفّحنا للعديد من تراجم أولياء التصوف ومآثر أقوالهم ومؤلفاتهم، فإننا لم نرَ واحداً منهم يصرّح بمثل هذا القول المتفجّر بالعظمة. فحتى أولئك الذين عدّوا أنفسهم - وعدّهم الصوفية - أقطاباً لعصورهم، لم يجرؤوا على القول بأنهم القدوة المثلى والنموذج الأتم . . لا للبشر فحسب، وإنما أيضاً للجن؛ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء .

وهناك ألقابٌ أخرى، تتصل بمكانة الإمام الروحية، هي في الأغلب من وضع الأتباع والمريدين . . منها: الغوث^(١)، الغوث الأعظم، غوث الثقلين^(٢)، مؤيد الأئمة، القطب الرباني، سيد الطوائف^(٣)، مُقتدي الأولياء، عَلم الهدى^(٤) . . أما ابن تيمية - أشهر أعداء المتصوفة - فيدعو الإمام بلقب: شيخ الإسلام^(٥) . . إلا أن هذه الألقاب الأخيرة لا يتفرّد بها الإمام الجيلاني، وإنما تُخلع أيضاً على غيره من كبار الصوفية .

ويُعرف الإمام بمُحيي الدين؛ وهي كُنيةٌ تسبق دوماً اسمه، جعلناها آخر ما نتناوله من الألقاب، لما تكشف عنه من إغراق بعض القادرية المتأخرين في صناعة الأسطورة لشييوخهم. ففي تعليّل الشطنوفي [علي بن يوسف بن جرير اللخمي، المتوفى سنة ٧١٣ هجرية] لهذا اللقب، يقول ما نصه:

«أخبرنا أبو محمد الداري بالقاهرة سنة سبعين وستمائة قال أخبرنا . .

- وقد رُويت هذه العبارة بألفاظ قريبة وأسانيد مختلفة في: بهجة الأسرار ص ٢٣ - قلائد الجواهر ص ٣٣ - خلاصة المفآخر (مخطوط) ورقة ٩٥ أ.
- (١) للإمام الجيلاني مقالة رمزية فريدة بعنوان (الغوثية) حقّقناها في القسم الثاني من ديوان عبد القادر الجيلاني .
- (٢) ميزرا علي مدرس: ربحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب (بالفارسية) تبريز - جنجانة سفق، جلد بنجم، ص ٢٥٢ .
- (٣) فتوح الغيب، ص ٣ .
- (٤) بهجة الأسرار، ص ٢ .
- (٥) لابن تيمية موقفٌ خاصٌ من الإمام الجيلاني، يتسم بالكثير من الاحترام . . انظر ما سنقوله عن شرح ابن تيمية لكتاب الجيلاني (فتوح الغيب) في الفصل الخاص بمؤلفات الإمام الجيلاني .

قال أخبرنا الشيخان أبو السعود الحريري المعروف بالمدلل، أبو عبد الله محمد بن قائد الأواني . . قيل لشيخنا ونحن عنده: ما سبب تسميتك بمُحيي الدين؟ قال: رجعت من سياحاتي مرة في يوم الجمعة في سنة إحدى عشرة وخمسمائة إلى بغداد حافياً، فمررت بشخصٍ مريضٍ متغيّر اللون نحيف البدن، فقال لي: السلام عليك يا عبد القادر. فرددت عليه السلام، فقال: ادن مني. فدنوت منه، فقال لي: أجلسني. فأجلسته؛ فمما جسده، وحسنت صورته، وصفوا لونه . . فخُفْتُ منه، فقال: أتعرفني؟ فقلت: لا، قال: «أنا الدين، وكنت قد دثرتُ كما رأيتني، وقد أحياني الله تعالى بك، وأنت محيي الدين!» فتركته وانصرفت إلى الجامع، فلما قُضيت الصلاة، أهرع الناس إليّ يقبلون يدي ويقولون يا محيي الدين؛ وما دُعيتُ به من قبل»^(١).

هكذا يصرُّ الشطنوفي، وغيره ممن ترجموا للإمام، على إحاطته بهالة أسطورية حتى في أدق تفاصيل حياته وكُنيتته. وقد كانت: [بهجة الأسرار] مَعْرُضاً لهذا التصور المُفارق للواقع، وهو ما نراه أيضاً في [خلاصة المفاحر] لليافعي. فكلاهما يُغرق في بحرٍ تمتزج فيه الخرافة بالكرامة، على نحوٍ يفتح الطريق ويمهِّد أمام الهجوم على التصوف والمتصوفة. . وذلك ما سنعاود الحديث عنه عند تناول كرامات الإمام، لكننا الآن نود أن نقف وقفة نقدية عند حكاية الشطنوفي السابقة، لنرى ما تطرحه من حقائق وقضايا يمكن حصرها فيما يلي:

أولاً: حرص الشطنوفي - أشهر من ترجموا للإمام الجيلاني - على وضع الأسانيد المعنونة لهذه الحكاية وغيرها من حكايات البهجة، وكأنه بذلك يزيد من يقينية ما يورده. لكن ذلك لم يمنع العلماء من الطعن فيها وفيه، كما فعل الخوانساري في (رؤُصات الجنات) وقد كان الشطنوفي بمأمن

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٥٤، ٥٥.

من ذلك كله، لو وقف بالكلام عند حدّ الشريعة وبيان الطريقة التي اتبعها الإمام الجيلاني، دون إسرافٍ في حديثٍ، كان الإمام ذاته يتجنبه ولا يحبُّ الخوض فيه .

ثانياً: وفقاً لما يحكيه الشطنوفي، فقد التقى الإمام الجيلاني بشخص (الدين) سنة ٥١١ هجرية، وهو وقتٌ لم يكن فيه الإمام قد تأهل بعد لإحياء الدين، فقد كان الأوفق أن يُورِّخ لذلك ببداية تصدُّر الإمام للوعظ وإصلاح حال أهل الزمان . . وهو ما كان بعد سنوات طويلة من التاريخ الذي ذكره الشطنوفي .

ثالثاً: كانت الكنى والألقاب أمراً متداولاً في زمان الإمام، دونما حاجةٍ إلى ابتداع سببٍ للكنية . . وقد اتفق للمثبات من علماء المسلمين أن كُنُوا بمحيي الدين . فليس من الطبيعي أن يُقال للإمام: ما سبب تسميتك بمحيي الدين! فمتى كانت الأسماء تُعلَّل . .

أخيراً: إن مثل هذه التصنُّعات، لن تزيد من قدر الإمام الجيلاني، كما يريد الشطنوفي، وإنما تفتح علينا باباً من الفتنة فيه، وتفسح الطريق أمام اعتقادين: إما اعتقادٌ غيبيٌّ غير متعلِّق من جهة العوام؛ أو اعتقادٌ قاطعٌ برفض التصوف من جهة عوام العلماء . . وكلاهما اعتقادٌ باطل .

نسبه الشريف:

ثار جدالٌ طويل حول صحة نسب الإمام عبد القادر إلى آل بيت النبوة . فقد أكَّد مؤلفو ترجماته، كما أكَّدت القادرية من ذرية الإمام ومريديه، على أنه شريف النسب، إذ يتصل بذرية باب مدينة العلم «علي بن أبي طالب» على النحو الذي ذكرناه فيما سبق .

وعلى الجانب الآخر، يرفض بعض المؤرخين ونسابة الشيعة هذا النسب الشريف . فنجد الخوانساري يحشد آراء هؤلاء الرافضين، وعلى

رأسهم ابن عنبة^(١) الذي قرّر بصورة قاطعة أن عبد القادر الجيلاني لم يدع هذا النسب، ولم يدّعه أيضاً واحداً من أولاده، وإنما كان أول مَنْ أظهر هذه (الدعوى الباطلة) حفيده: القاضي أبو صالح نصر بن أبي بكر بن عبد القادر. . وهي دعوى - وفقاً لعبارة ابن عنبة - لم تُقم عليها بينة، ولا عرفها له أحد^(٢).

وَحُجِّجُ الْمُنْكَرِينَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنْ «عبد الله بن يحيى» رجلٌ حجازيٌّ لم يخرج من الحجاز، وهذا الاسم «چنكي دوست» أعجميٌّ صريحٌ؛ وفوق ذلك، فلا طريق لإثبات هذا النسب إلا بالبيّنة العادلة، وقد أعجزت هذه البيّنة القاضي أبا صالح، واقترن بذلك عدم موافقة جده الجيلاني وأولاده. . ويعقب الخوانساري على ذلك بقوله: فَلْيُتَفَطَّنْ لِذَلِكَ وَلَا يُفْعَلْ^(٣).

ولم تفضّ السنون هذا الخلاف! فمن قضايا المحاكم المشهورة اليوم في العراق، تلك الدعوى التي رفعها أحد أحفاد الإمام الجيلاني على الأستاذ محمد بهجت الأثري، لنتفيه النسب العلوي عن جدّه في مقال كتبه بإحدى المجلات العراقية. . وما زال الأستاذ الأثري يصرّ على رأيه هذا^(٤).

ولنا على هذا الخلاف جملة ملاحظات. . أولها، أنه جدلٌ عقيم! فما ينبغي لخلاف كهذا أن يطول فيه الأخذ والرد. إذ القرابة في حقيقة أمرها نوعان: قرابة الطين وقرابة الدين. . والنوع الأول هو المُعتبر لدى الخلق، أما

(١) هو أحمد بن علي بن الحسين الحسيني، المعروف بابن عنبة. . واحدٌ من كبار نُسابة الشيعة. أهم مؤلفاته [عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب] كانت وفاته سنة ٨٢٨ هجرية.

(٢) الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات [تحقيق أسد الدين إسماعيليان - تهران ١٣٩٢ هـ] المجلد الخامس، ص ٨٥.

والنص الذي نقله الخوانساري عن ابن عنبة، وارد في: عمدة الطالب. . (طبعة النجف ١٩٦١) ص ٣٠٠.

(٣) روضات الجنات ٨٦/٥.

(٤) د. كامل الشيبلي: الصلة بين التصوف والتشيع [دار المعارف - الطبعة الثانية] المستدرك، ص ٥٥٦.

عند الحق وفي الشرع، فقرابة الدين هي الأساس، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «لا يتوارث أهل الملتين»^(١). فلولا القرابة الدينية، ما ورث القرابة الطينية شيئاً^(٢). ولو لم تكن قرابة الدين هي الأولى، ما قال ﷺ: سلمان مينا آل البيت^(٣).

ولدينا من الأخبار والأحاديث الصَّحاح، العديد من الآثار التي تحذّر المسلمين من الخوض في التباهي بالأنساب، وتنهاهم عن التعلق بأهداب التفاخر بالأباء والأجداد، فيقعد بهم ذلك عن فضائل الأعمال^(٤). . فالكلُّ في

(١) رواه الترمذي عن جابر في السنن، باب الفرائض، رقم ٩١ - وابن حنبل في الموطأ ص ٤٢٦ بلفظ: لا يرث المسلم الكافر.

(٢) البريفكاني: شرح الحكم العطائية [تحقيق محمد مصطفى الكزني - دار الناشر العربي بالقاهرة] مقدمة المحقق ص ١٢.

(٣) حديث مشهور متواتر، جعل منه الصوفية دليلاً على القرابة الروحية؛ انظر: صفة الصفة لابن الجوزي ١/٢٢٠ - الفتوحات المكية لابن عربي ١/٢٥٦ - الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٥٠.

(٤) عن ابن عمر أن النبي ﷺ خطب في الناس يوم فتح مكة فقال: أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاطمها بأبائها، فالناس رجلان، رجل برّ تقى كريم على الله، ورجل فاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من التراب [سنن الترمذي، تفسير القرآن برقم ٢٤، ٣٣ - تفسير القرطبي ١٦/٣٤١].

ومن الأحاديث النبوية المشهورة في هذا الباب، قوله ﷺ: ليتهين قومٌ يفتخرون بفحم جهنم.

إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا أنسابكم..

كلكم بنو آدم، وآدم من تراب.

المسلمون أخوة، وأحبكم إلى الله أتقاكم.

ويروي الفخر الرازي في تفسيره، أن بعض العلويين في زمنه كان مُسرفاً على نفسه، وكان هناك مولى أسود تقدّم بالعلم والعمل فمال الناس للتبرك به.. واتفق أن خرج المولى الأسود من بيته يقصد المسجد، فاتبعه الخلق، فلقى العلوي وهو سكران! فكان الناس يطردون العلوي ويبعدونه من طريق المولى الأسود، فتعلّق العلوي بأطرافه وقال له: يا أسود الحوافر والشوافر، أنا ابن رسول الله أذلّ وتجلّ، وأدّم وتكرم، وأهان وتعان.. فهمّ الناس بضرب العلوي، فمنعهم المولى الأسود عنه، وقال له:

أيها الشريف، بيّضت باطني وسوّدت باطنك، فرأى الناس بياض قلبي على سواد وجهك فحسنت؛ وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي، فرأني الخلق في سيرة أبيك وراوك في سيرة أبي، فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي، فعملوا معك ما يعمل مع أبي، وعملوا معي ما يعمل

الإسلام بنو آدم، ويوم يُنفخ في الصور فلا أنساب بينهم!

والملاحظة الثانية، تتعلّق بما استدلّ به منكرو النسبة حين قالوا إن الإمام «عبد الله بن يحيى» رجلٌ حجازيٌّ لم يخرج من الحجاز، وأن الإمام الجيلاني وُلد ببلاد فارس، وفي اسمه «چنكي دوست» وهو اسم أعجميٌّ صريحٌ.. نقول: إن عدم خروج الإمام عبد الله بن يحيى من الحجاز، لا يعني عدم خروج واحدٍ من أولاده! فإذا كان الإمام عبد الله [جَدُّ] الإمام الجيلاني، فربما كان [والد] الشيخ عبد القادر^(١) هو الذي خرج إلى بلاد فارس.. وأما لفظه «چنكي دوست» التي كانت من أسباب الخلاف الرئيسية، فهي محض لقب فارسيّ - وليست اسماً كما يُفهم من كلام ابن عنبه والخوانساري - أضافه أهل فارس لاسم موسى بن عبد الله. وهي كلمة فارسية تعني حرفياً: المُحبُّ للقتال.

والملاحظة الأخيرة هنا، مستمدة مما كتبه الزميل جعفر سهيل.. فقد أشار إلى أن الذين أنكروا نسب الإمام الجيلاني، هم على وجه الخصوص [نسابة الشيعة] لما كان للإمام من مواقف حادة ضد التشيع. وقد تشدّد هؤلاء في الإنكار، لا على الحقيقة والواقع، وإنما على التعصّب^(٢).

ونخرج من هذه الملاحظات إلى الحقيقة التالية:

لم يهتم الإمام الجيلاني بتأكيد نسبه إلى آل بيت النبوة لعدة أمور، أولها اهتمامه بما هو أولى من الأنساب - أعني تهذيب نفوس مريديه وإصلاح حال أهل زمانه - وثانيها اشتهاه هذه النسبة في وقته وبين أسرته بجيلان، تلك

مع أيبك.. [القرب في محبة العرب للعراقي، تحقيق الشيخ إبراهيم حلمي القادري ص ٣٢، ٣٣].

(١) من الغريب أن جميع المصادر التي أسهبت في الترجمة للإمام الجيلاني، لم تشر إلى والده، مع أنها تعرضت لبقية أفراد أسرته.

(٢) جعفر صادق سهيل: عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي [رسالة ماجستير بإشراف د. محمد كمال جعفر ١٩٧٥] المكتبة المركزية بجامعة القاهرة برقم ١٥٢٠، ص ١٨.

الأسرة التي تشير إليها المصادر بلفظ [الأشراف] وهي اللفظة التي تُطلق على آل بيت النبوة إلى اليوم في كافة بلدان الإسلام، فلم يكن هناك داعٍ لتأكيد النسب. . وأخيراً، فربما خشي الإمام أن يصبح التعلُّق بسلسلة النسب الشريف، عادة لذريته يركنون إليها فيقعدون عن الترقى بفضائل الأعمال، وقد كان الإمام دائم التردد لهذا البيت الشعري [من الطويل]:

وَمَا يَنْفَعُ الْإِعْرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تَقَى وَمَا ضَرُّ دَا تَقْوَى لِسَانٍ مُعْجَمٍ (١)

إلا أن الإمام الجيلاني لم يهمل الإشارة إلى نسبه الشريف تماماً، فقد ألمح إليه بإشارات عابرة في الأبيات الأخيرة من قصائده؛ وهي الظاهرة الشعرية المعروفة في قصائد الفرس باسم [التخلص] والتي نراها في القسم الأول من (ديوان عبد القادر الجيلاني) ثالث كتب هذه المجموعة الخاصة بالتراث القادري.

مولده ونشأته:

سُئل الإمام الجيلاني عن مولده، فقال: «لا أعلمه حقيقةً، لكنني قدمتُ بغداد في السنة التي توفي فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثمان عشرة سنة». . فلما كان أبو محمد رزق الله التميمي، المُشار إليه في عبارة الإمام قد توفي سنة ٤٨٨ هجرية^(٢)، فإن مولد الجيلاني يكون سنة ٤٧٠ هجرية.

(١) بهجة الأسرار ص ١٠٣ - قلائد الجواهر ص ٩٦. وهذا البيت الشعري . من بيتين ذكرهما النووي في: بستان العارفين [دار الصابوني، ص ١٣٩] لهلال بن العلاء، وهما:

سَبِيلِي لِسَانٌ كَانَ يُعْرَبُ لَفْظُهُ فَبَا لَيْثُهُ فِي وَقْفَةِ الْقَرْضِ يَنْسَلِمُ
وَمَا يَنْفَعُ الْإِعْرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تَقَى وَمَا ضَرُّ دَا التَّقْوَى لِسَانٍ مُعْجَمٍ

(٢) بهجة الأسرار، ص ٨٨.

ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ٤٨٨ هجرية: في جمادى الأولى توفي أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي، الفقيه الحنبلي، كان عارفاً بعلوم عدة، وكان مقرباً من السلاطين. . [الكامل في التاريخ ٢٥٣/١٠].

وهو التاريخ الذي اعتمده الشطنوفي، وتابعه فيه العديد من المؤرخين
والمترجمين للإمام^(١).

أما ابن العماد، فيذهب إلى تاريخ آخر. . فيقول إن وفاة الإمام بإجماع
المؤرخين كانت سنة ٥٦١ هجرية، وأنه عاش تسعين سنة، وعليه يكون مولده
سنة ٤٧١ هجرية^(٢). . وهو التاريخ الذي يقرره أيضاً: ابن شافع الجيلي^(٣)
وابن الجوزي^(٤) وابن تغري بردي^(٥).

ثم شَطُّ ابن شاکر شططاً بعيداً حين قال في [الفوات] إن مولد الإمام
كان سنة ٤٩١ هجرية، دونما ذكرٍ للمصدر الذي نقل عنه ذلك. وهذا التاريخ
الذي يقرره ابن شاکر لا يخرج عن أمرين: إما خطأً وسهواً من المؤلف، أو
تصحيفاً من أحد نُسَاح الفوات. . وهو في الحالين بعيدٌ عن الصواب.

فإذا عُذْنَا إلى التاريخين الأولين [٤٧٠، ٤٧١] واللذين تعادلت
قيمتاهما التاريخية، ورواهما الثقات من المؤرخين؛ وجدنا الاختلاف بينهما
يسيراً. وثمة أمرٌ قد يرتفع به الخلاف، وهو أن الإمام الجيلاني وُلِدَ أواخر سنة
٤٧٠ هجرية، وأنه حين قال بنزوله بغداد وهو في الثامنة عشرة كان يُشير إلى
عمره آنذاك إجمالاً، فليس من المعتاد أن يُقال: كان سِنِّي سبعة عشر، وكذا
من الشهور. . وعلى ذلك يكون مولد الإمام عبد القادر أواخر سنة ٤٧٠
هجرية، أو على الأكثر، في مستهلِّ السنة التالية لها.

وُولد الإمام بقريةٍ من قرى جيلان يقال لها [بُشْتِيرُ]^(٦) وهو يُنسب إليها

(١) انظر على سبيل المثال: الشطنوفي ص ٨٨ - ميزرا على مدرس ص ٢٥٤ - براون ص ٧٠.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ٣٠٢/٤.

(٣) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم [حيدرآباد ١٣٥٨ هـ] المجلد العاشر،
ص ٢١٩.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٧١/٥.

(٦) يقول ياقوت: بشتير [بالضم والثاء المثناة المكسورة والياء الساكنة] موضعٌ في بلاد جيلان؛ =

أحياناً^(١) . . وكان مولده بين أسرةٍ معروفةٍ بالفضل والعلم، لها مكانة روحية مميزة؛ فجدُّه الشيخ أبو عبد الله الصوفي من كبار زُهَّاد الناحية وعلمائها، وقد وُصف بأنه كان «مُجاب الدعوة، إذا غضب انتقم الله سريعاً لغضبه . وكان مع ضعف قوته وكبر سنه، كثير النوافل دائم الذكر ظاهر الخشوع . وكان يُخبر بالأمر قبل وقوعه»^(٢) وهكذا اجتمعت في الجد صفات الزاهد الصوفي، تلك الصفات التي كانت إطاراً لفهم حفيده الصغير للتصوف؛ وبذلك، تمَّ إعداد الإمام الجيلاني للولاية قبل أن يولد!

وكانت عمته المعروفة بأمِّ محمد عائشة بنت الأشراف، مشهورةً هناك بالصلاح والتقوى؛ وقد خلعت عليها علامات الغوثية أيضاً . فيقال إن بُشتير وما حولها من قرى جيلان، أصابها جذبٌ شديدٌ كاد يتلف الزروع والضروع، فلجأ أهل جيلان إلى العابدة الزاهدة المتدثرة بالغوثة، وألحوا عليها بلسان الاضطرار أن تدعو بانهمار المطر . فقامت بعد صلاة الاستسقاء، فكنتس الأرض؛ ورفعت وجهها للسماء قائلةً: أنا كنتُ فرُشٌ أنتُ^(٣) . فلم يلبثوا أن فُتحت السماء كأفواه القرب .

وكانت والدته «أم الخير فاطمة بنت عبد الله» سيدهً ورعةً تقيّةً، ورثت عن والدها الورع وأورثته ولدها . وقد عملت الوالدة على أن يشبَّ الولد على ما يؤهله للجلوس على بساط الصلاح؛ فها هو يتلقى علوم القرآن والحديث والسيرة، ثم يصبو للمزيد، ويأمل في الاستزادة، فيصحب زوادته إلى بغداد . . كما سنرى بعد قليل .

وأغلب الظن أن الإمام الجيلاني قد نشأ يتيماً من جهة الأب، فعلى

= قالوا: إليها يُنسب الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الحنبلي البُشتيري . . [معجم البلدان ٤٢٦/١].

(١) البستاني: دائرة المعارف، مادة الجيلاني [دار المعرفة - بيروت] ٦٢١/١١ .

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ١٩٩/٤ - الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٩ .

(٣) المرجعان السابقان، الصفحة نفسها . . وأيضاً: قلائد الجواهر ص ١٠ .

الرغم من أن المصادر الخاصة به لم تذكر هذا صراحة^(١)، إلا أن هناك عدة أمور تؤكد يُتمه، منها:

* كون الإمام قد عُرف بجيلان بلقب [سبُّط أبي عبد الله الصومعي] والسبُّط لقب لا يُخلع في العادة إلا على الأيتام من جهة الأب، إلحاقاً بجدهم، خاصةً إن كان الجدُّ من الأفاضل.

* سكوت المصادر عن أية إشارة لوالده، رغم إفصاحها عن أحوال بقية الأسرة.

* غالباً ما تذكر المصادر التي أرخت لحياة الإمام بجيلان، عدة مواقف بينه وبين والدته، دون والده.

* قول الإمام إن أمه أعطته عند رحيله لبغداد، بعض الدنانير التي «خلفها» والده^(٢).

لكن اليُتم لم يكن يوماً، حائلاً يعوق ارتقاء سلم المعارف، بل ربما كان باعثاً حثيثاً على ذلك. . ولما كان الموت قدر البشر كلهم، فكلُّنا في الحقيقة أيتامٌ من الجهتين.

* * *

في جيلان كانت النشأة وبداية المسار، وعبر المرحلة الممتدة من مولد الإمام حتى بلوغه الثامنة عشرة، رُسمت اللوحة الأولى لحياته. فيها هو طفلٌ من الأشراف يجلس بين أقرانه مستمعاً لترتيل القرآن من معلمه؛ وها هو في منزله يتأمل قسمات وجه جدّه الصومعيّ الزاهد إذا خرج من صومعته وراح يلاطف حفيده اليتيم، بينما الحفيد غارقٌ في فيوضات التّحنان والنور الرباني المتألّق في عينيّ الجد؛ وها هو تحت فراشه الليليّ، يسبح في سماء غرفته

(١) كان جعفر صادق سهيل قد ذكر في رسالته هذا الأمر بطريقة تقريرية دون إشارة إلى المصدر الذي اعتمد عليه.

(٢) انظر: بهجة الأسرار ص ٨٧ - قلائد الجواهر ص ١٠.

مع تلك المعاني الروحية التي ألقاها في روعه وقلبه، همسُ أمه بآيات القرآن في سكون الليل وعند قيامها لصلاة الفجر؛ وها هو يسكن تحت أنامل عمته التي راحت تتخلَّل شعر رأسه وشرابين قلبه وقد راحت عيناها في ارتحال للدخول، حيث تنفض غبار الزمن عن ذكريات أخيها، والد عبد القادر، فيزداد الشجن وتشتدُّ الضمَّة للطفل اليتيم، ثم تهجم عليها أفراح الأمل في الصغير حين تتذكر تلك الواقعة التي جرت عند ولادته، حين كان لا يلقم ثدي أمه نهار رمضان، فإذا آن الغروب نهل الرضيع، حتى كان العام المقبل واغتمَّ على الناس هلال رمضان وشاروا بين الصوم والإفطار، فقالت أمه إنه لم يرضع في نهاره، وعرفوا بعدها أنه كان يوم صوم. . تتذكر العمة فيهدأ خوفها على ابن الأخ، اليتيم الذي لاحت بشرى ولايته في المهد وكهلاً.

ونرى عبد القادر بعد سنوات وقد نبت في لحيته شعرٌ خفيف، وتشابكت في عينيه أشجارُ الغربة. . تودَّعُ مُقلَّته القوافلَ الراحلةَ إلى بغداد، فيحنُّ، ويضيق به مسعاه بين مروج بُشتير، ويحلم بأولياء بغداد، وعلوم بغداد. فإن أفاق من نشوته، ضاق بدروب قريته، وعاد لحلمه المقيم بين الشغاف وأوتار القلب.

ويحكي المُحبُّون للإمام، كيف استطال به الشوق وغلبه الحنين للسفر. حتى كان ذلك اليوم الذي رحلت فيه قافلة الحجيج، فتبعها حتى حدود البلدة، وعاد فارتقى سطح منزل جده الزاهد، ليطوِّل توديعه للقافلة الراحلة. فلما غابت الرواحل عن بصره، تجلَّت لبصيرته أنوارُ مكَّة ونفحات البيت العتيق، وإذا به يرى الحجيج هناك مُهلِّلين ومُكَبِّرين؛ فامتألت عيناه بالوجد، وغالب الشوق فانغلب. . هبط الدرج آسياً، رأت أمه بحار الحنين تتفجَّر في عينيه، سألته، فصارحها بمكنون الفؤاد. . قالت:

يَا وَلَدِي؛ اذْهَبْ، فَقَدْ خَرَجْتُ عَنْكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَذَا
وَجْهٌ لَا أَرَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الخروج إلى بغداد

الرحلة:

يقول أقطاب الطريق الصوفي، إن النهايات لا تصح إلا بصحة البدايات^(١)، وأنه لا بد للبذور من الدفن.. فما نبت مما لم يصلح دفنه، لا يتم نتاجه^(٢). ولقد كانت البداية والبذرة الدفينة في المنحنى الروحي لحياة الإمام، بجيلان؛ فهناك كانت النشأة الدينية القويمة، والنفحة الصوفية القوية؛ وكانت علوم القرآن والحديث والفقه وآداب الزُّهاد، أساساً للجدار الصوفي الذي ارتقاه الإمام فيما بعد.. وعلى الجملة، فقد كان للإمام: بذورٌ صِحَاحٌ عُرسَت بجيلان، وأورقتُ ببغداد، وتوزعت ثمارها على العالم الإسلامي كله.

وفي الطريق إلى بغداد، يحكي المترجمون المُحبُّون للإمام واقعة؛ فقد كان تحت ثيابه أربعون ديناراً خاطتها أمه في موضعٍ خفيٍّ، وبينما القافلة تشق الطريق الجبلي في مسيرها إلى بغداد، خرج قاطعو الطريق، فانفرط

(١) الهروي الأنصاري: منازل السائرين [طبعة البابي الحلبي ١٩٦٦] ص ٤.
(٢) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، مع شرح الشيخ زروق [تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف - دار الشعب ١٩٨٥] ص ٣٦.

عقد القافلة، وعلا الصراخ والهياج والنهب، وسكن الشابُ الجيلاني، حتى انتهى السطو. فإذا بواحدٍ من قاطعي الطريق يتقدم إليه مُستخفّاً به: وأنت أيها الشاب، أليس معك شيء؟ يقول الجيلاني: معي أربعون ديناراً. يتعجب اللصُّ: وأين هي؟ يرد: مُخاطة تحت ثيابي.. يتحول تعجب اللص إلى حنق، يريد الفتك بالشاب الذي بدا له أنه يهزأ به، يقوده إلى زعيم الجماعة القاطعة، يحكي ما دار بينهما، يسأله الزعيم نفس الأسئلة، فيتلقى نفس الردود. يتعجب: إن كان معك الدنانير كما تقول فأخرجها! يُخرج الجيلاني الدنانير، فينقلب التعجب إلى دهشةٍ ووجلٍ من الشاب. يترجم الزعيم تعجبه ودهشته ووجله في السؤال: لماذا تفعل ذلك وقد كنت بمنأى من السطو لو أنكرت ما معك؟ يقول مَنْ سيصير إماماً: «لأنني عاهدتُ أمي قبل خروجي على الصدق، وأنا حافظٌ لعهدي معها».. هنا يعتصر الوجدُ قلب الزعيم، ويرتجف قلبه النائم في ضلوع الفسق، ويتأمل: «هذا الفتى يحافظ على عهده لأمه حتى يُنهب ويكاد يُقتل، وأنا أخون عهد الله فأنهبُ وأقتل».. يرد الدنانير لصاحبها، ويرد ما سلبه للقافلة، ويُعلن: «اعلموا إنني تائبٌ إلى ربي، مقلعٌ عما اعتدته، مقبلٌ على عمل الخير».. وتحت تأثير روعة توبة الزعيم، وانفعالاً بموقفه؛ يعلن بقية القطاع عودتهم إلى طريق الله تائبين.

تلك هي الواقعة التي يرويها الشطنوفي والياضي والتادفي^(١)، والعهدة فيها على الرواة - إذ نجدها أيضاً في مواضع أخرى منسوبةً لغير الجيلاني - وإذا لم تكن الواقعة حقيقية، فإنها تدلُّ على حقيقة اعتقاد القادرية في بركة شيخهم وألوية ولايته المرفوعة منذ الصغر.. ومع أن الواقعة بعيدة في مصداقيتها عن عوام الأفهام، إلا أنها غير مستحيلة الوقوع.

ونعود لرحلة الإمام الجيلاني التي انتهت إلى بغداد سنة ٤٨٨ هجرية،

(١) راجع القصة الكاملة لخروج الإمام الجيلاني إلى بغداد ووداع أمه له، في: بهجة الأسرار ص ٨٧ - قلائد الجواهر ص ٣ - خلاصة المفآخر [مخطوط].

فلاحظ أنها السنة التي ترك فيها الغزالي [حجة الإسلام أبو حامد محمد، المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية] التدريس في نظامية بغداد الشهيرة، حيث تزهد، ولبس الخشن، وسافر سفرته التي وضع فيها موسوعته [إحياء علوم الدين] والتي عاد بعدها، ليرحل رحلته الأخيرة إلى خراسان.. وهكذا، نزل الإمام الجيلاني من بلاد فارس إلى بغداد، في الوقت الذي نزع فيه حجة الإسلام من بغداد إلى بلاد فارس.. لم يُطلب منهما آنذاك جوازات سفر وتصاريح دخول، ولم يكن فاصل الشوك والنار قد قطع ما بين أقطار الإسلام.

وحين دخل الشاب الجيلاني بغداد من بوابتها الشرقية، خفق قلبه، وهو القرويُّ النقيُّ، لما رأى اجتماع الأضداد وتعانقها بين دروب بغداد؛ القصور العالية وخلوات الزهاد، مجالس اللهو، وحلقات الدرس، دنان الخمر وكتب الفقه، السكاري والفقهاء، الشياطين والملائكة.. كانت بغداد آنذاك: مختصر الكون كله.

كان دخول الجيلاني بغداد انقلابين: انقلاباً في المنحنى الشخصي للجيلاني، وانقلاباً في واقع بغداد الديني. ففي بغداد وما حولها، تنقل الجيلاني في أطوار الرحلة الممتدة من الخلق إلى الحق، من الدنيا إلى الآخرة، من الأرض إلى السماء.. وفي بغداد أزهرت شجرة ولايته توبةً وعودةً بأهل الزمان إلى حضن الإسلام النقي. وهكذا شهدت حاضرة العالم الإسلامي آنذاك هذا التحول الذي سنعرض له بالتفصيل فيما يأتي من صفحات، والذي عبّر عنه بعض مُحبي الإمام، فقال شعراً [من الطويل]:

بِمَقْدَمِهِ أَنْهَلَ السَّحَابُ وَأَغْشَبَ أَلَمُ	عِرَاقٌ وَزَالَ الْعَيُّْ وَأَتَّضَحَ الرَّشْدُ
فَعِيدَانَهُ رَنَدٌ وَصَخْرَاؤُهُ جَمِيٌّ	وَحَصْبَاؤُهُ دُرٌّ وَأَمْوَاجُهُ شَهْدُ
يَمِيسُ بِهِ صَدْرُ الْعِرَاقِ صَبَابَةٌ	وَفِي قَلْبٍ نَجْدٍ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَجْدُ
وَفِي الشَّرْقِ بَرَقَ مِنْ مَحَاسِنِ نُورِهِ	وَفِي الْغَرْبِ مِنْ ذِكْرِي جَلَالَتِهِ رَعْدُ

ويمكننا اختزال المنحنيات الكبرى في سيرة الإمام الجيلاني ببغداد
- التي سكنها حتى وفاته - خلال تناولنا له: فقيهاً، ملامتياً، مجذوباً لربه..

الفقيه:

نفض الشاب الجيلاني تراب السفر عن ملابسه، وتتهيأ ليتّم ما جاء من
أجله، وليحصّل من العلوم الهادرة ببغداد طرفاً، وقد تذكّر الإمام الجيلاني
هذه الفترة من حياته بعد زمن، فنظر إلى بعيد وهو يقول لمنّ حوله: لَقَدْ
دَخَلْتُ فِي أَلْفٍ فَنَّ حَتَّى أُسْتَرِيحَ مِنْ دُنْيَاكُمْ.

وكان الفقه أول الفنون (الألف) التي دخلها الإمام الجيلاني ليريح قلبه
من هموم الدنيا، وقد كان بدراسته للفقه يستكمل ما بدأه في موطنه الأول من
دراسة دينية، ويُحكّم في الوقت ذاته ذلك الجدار الروحي الذي سيقممه في
أرض التصوف.. فإن من يدخل إلى الحقائق الذوقية من باب الدقائق
الفقهية، فهو يعصم نفسه - أو بالأحرى يعصمه الله - من الوقوع في مخادعات
الطريق ومخاطره ومُنحنياته؛ فطريق التصوف وعِرٌّ، لا يتسنى للعبد الصادق
قطع مراحلها، إلا بأقدام الفقه وعلوم الشرع.

وإننا لتساءل عن سير إقدام الإمام الجيلاني على دراسة الفقه؛ هل كان
ذلك باختياره، أم بتوفيق الله له وعنايته به؟ يبدو أن ذلك كان بالأمرين معاً..
فكما يرى الصوفية، فالولاية قدرٌ أزليٌّ لأصحابها، تظل العناية الإلهية تعدو
بأهل الله، حتى تصل بهم إلى الغاية، فإذا سارت إرادة العبد مع إرادة
الخالق، تحقق ما لا بدّ من تحقيقه!

وقد تلقى الإمام علوم الفقه فروعاً وأصولاً، مذهباً وخلافاً، على يد
أربعة من كبار مشايخ عصره، هم: أبو الوفاء بن عقيل، أبو الخطاب
الكلوداني، أبو الحسن بن يعلى الفراء، أبو سعيد المخرمي.. وقد كانت

للاخير مكانة خاصة عند الجيلاني، سوف نتعرض لها في الفصل التالي، حين نتناول أهم شيوخ الإمام ومعاصريه.

وكانت عناية الإمام بالفقه عامة، وعنايته بالفقه الحنبلي خاصة. وقد برع في دقائق هذا التخصص الفقهي حتى صار فيما بعد، زعيماً لفقهاء الحنابلة ببغداد، وعلماً من أعلام الفقه الحنبلي في تاريخه الممتد من أحمد بن حنبل حتى يومنا هذا. . وهنا تستوقفنا تلك العلاقة بين المذهب الحنبلي والتصوف؛ فقد عُرف الاتجاه للتصوف عند العديد من مشاهير هذا المذهب، برغم ما يبدو من فروق بين تشدّد الحنابلة وتسامح الصوفية. فما هو سرُّ العلاقة بين الحنبلية والتصوف؟

يذهب بعض المساكين من الباحثين الذين تخصصوا في دراسة المذهب الحنبلي، إلى أن الميل للتصوف عند بعض الحنابلة هو بمثابة نقطة الضعف في هذا المذهب! وهو رأي لا يستند إلا إلى ضعف القائلين به وقصور نظرهم. . فالتصوف نهايةٌ طبيعيةٌ لهذا المذهب الفقهيّ، الذي تميّز بالشدّد في دقائق الشريعة، فإذا هو يُنبئ بسطوع أنوار الحقيقة. فما دام الحنبليّ ذا بصيرٍ وبصيرةٍ، فإنه معرّضٌ لا محالة لأنوار الطريق الصوفي، ذلك الطريق الذي يبدأ بصدق الظاهر وينتهي بروعة المظاهر. . فمن الطبيعي إذن، أن نجد ارتباطاً بين التصوف والمذهب الحنبلي عند الجيلاني، وغيره من أعلام الإسلام.

ونعود لصحبة الشاب الجيلاني ببغداد، وسعيه لطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم؛ فنراه ينتهي من دروس الفقه ليشتغل بدروس الحديث النبوي وأصوله، حيث سمع من كبار المحدثين من أمثال: أبي غسالب الباقلاني، أبي سعد بن خنيش، أبي الغنائم الرّسّي، أبي بكر التّمّار، أبو محمد السّراج. . وغيرهم كثيرون^(١). وقد روى الإمام الحديث، وكان ثقةً فيه، كما

(١) انظر بهجة الأسرار، ص ١٠٦.

رواه من بعده أبنائه وأحفاده، حيث كان من ثقات المُحدِّثين ولده (عبد الرزاق) وحفيده (القاضي أبو نصر).

في هذه الفترة أيضاً، درس الإمام الأدب وعلوم اللغة، وكان ذلك على يد أبي زكريا التبريزي. . . وقد بلغ من حب الإمام للعربية أنه لم يكتب إطلاقاً غيرها، فلم يفعل مثل بعض الفرس الذين ألفوا بالعربية وبالفارسية - كابن سينا والسُّهروردي - وإنما صارت العربية له لساناً وقلماً ومنهجاً فكرياً. . . على أن ذلك لم يمنعه في بعض الأحيان من استخدام بعض الألفاظ الفارسية التي كانت متداولة في عصره، كقوله في وصف القطب إنه: «حَاكِمُ دَسْتِ آلِوَقْتِ»^(١). . . لكنها مرات نادرة جداً، تلك التي ضُمَّنَّ فيها كلامه ألفاظاً فارسية.

وتلقى الإمام في هذه المرحلة أصول علمٍ كان قد نضج تماماً، هو (علم الكلام) الذي تشعبت مباحثه واستقرت، عبر محاولات عديدة تسعى في جملتها للدفاع عن حقائق الإسلام استناداً إلى الأحكام العقلية والإقناع المنطقي^(٢). لكن نفس الإمام الجيلاني عزفت عن مباحث علم الكلام؛

(١) الجيلاني: ديوان عبد القادر الجيلاني [القسم الثاني] مقالة: وصف القطب. . . ولفظة [دست] تعني بالعربية: القدرة والسلطان.

(٢) اتخذ (الكلام) مفهوماً اصطلاحياً منذ وقت مبكر، وعُرف أصحابه باسم (المتكلمون) ولكي نستوضح المراد من هذا المصطلح، نورد فيما يلي بعض تعريفات علماء المسلمين له: - الفارابي: هو صناعة يُقْتَدَرُ بها على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرَّحَ بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقويل.

- ابن خلدون: الكلام علمٌ يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وعقائد أهل السنة.

- الأيجي: الكلام علمٌ يُقْتَدَرُ معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.

- الفتازاني: هو العلم المتعلق بالأحكام الأصلية الاعتقادية، ويسمى علم التوحيد والصفات، وعلم أصول الدين، وعلم الكلام.

وقد استخدم المتكلمون في دفاعهم عن الدين عدة مناهج وطرق حوارية، منها: البرهان الكلامي، والتأويل، التفويض. . . راجع (د. أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٦ - ص ٢٤١ وما بعدها).

لخوض هذه المباحث في دروب وعرة لم تستطع الخروج منها، كخوضها في طبيعة الذات الإلهية بأحكام عقلية عقيمة، أدت إلى تصورات تخالف المفهوم الواضح للذات الإلهية في الدين الإسلامي، وتخالف معرفة الصوفية لله، تلك المعرفة الشهودية التي عمادها العيان لا أحكام العقل. وقد تجلّى رفض الإمام الجيلاني لآراء الفرق الكلامية بخصوص الذات الإلهية، في عقيدته التي يقول فيها:

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. لَوْ كَانَ شَبَحًا لَكَانَ مَعْرُوفَ الْكَمِّيَّةِ،
 وَلَوْ كَانَ جِسْمًا لَكَانَ مُتَالِفَ الْبِنِّيَّةِ، بَلْ هُوَ وَاحِدٌ رَدًّا عَلَى
 الْفَنَوِيَّةِ.. صَمَدٌ رَدًّا عَلَى الْوَتْنِيَّةِ.. لَا مِثْلَ لَهُ طَعْنًا عَلَى
 الْحَشَوِيَّةِ.. لَا كَقَوْلِهِ رَدًّا عَلَى مَنْ أَلْحَدَ بِالْوَصْفِيَّةِ.. لَا
 يَتَحَرَّكَ مُتَحَرِّكٌ إِلَّا بِإِزَادَتِهِ رَدًّا عَلَى الْقَدْرِيَّةِ.. لَا تُضَاهِي
 قُدْرَتَهُ وَلَا تَتَنَاهَى حِكْمَتُهُ تَكْذِيبًا لِلْهُدَيْيَّةِ.. أَنْزَلَ الْقُرْآنَ
 فَأَعَجَزَ الْفُصَحَاءَ فِي نِظَامِهِ إِزْغَامًا لِحُجَجِ الْمِرْدَارِيَّةِ..
 أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَضَلَّ الْكَافِرِينَ رَدًّا عَلَى
 الْهَشَامِيَّةِ.. يَرَى نَفْسَهُ وَيَرَى غَيْرَهُ، سَمِيعٌ بِكُلِّ نِدَاءٍ
 بَصِيرٌ بِكُلِّ حَقَاءٍ رَدًّا عَلَى الْكَعْبِيَّةِ.. يُرَى كَالْقَمَرِ لَا
 يُحْجَبُ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَ الرُّؤْيَا مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ.. كَيْفَ يُحْجَبُ
 عَنِ أَحْبَابِهِ.. كَيْفَ يَفْرَحُ الْمَجْنُونُ بِدُونِ لَيْلَى
 الْعَامِرِيَّةِ؟^(١)

وإذا كان الإمام في هذه العقيدة رافضاً لمذاهب المتكلمين على اختلاف فرقهم، فقد ظهر رفضه لعلم الكلام في العديد من المواقف، منها ما سنعرض له عند الحديث عن (السُّهروردي) المعاصر له. والحقيقة فإن رفض الإمام الجيلاني لعلم الكلام يأتي متمشياً مع طبيعة الصوفي، ومتوافقاً مع

(١) الجيلاني: ديوان عبد القادر الجيلاني (القسم الثاني) المقالة الأولى.

غالبية الصوفية، فهذا العلم ينافي في منطلقه ومساره، كل بديهيات التصوف؛ ولذا نجد حجة الإسلام (الغزالي) يتوقف أيضاً عن الخوض فيه أثناء بحثه عن (الحقيقة) فنراه يقول في ترجمته الذاتية إنه علم «وَأَفِّ بِمَطْلُوبِهِ، غَيْرِ وَاْفِّ بِمَطْلُوبِي» ونراه يضع كتاباً بعنوان: إلجام العوام عن علم الكلام.

ومن لطائف ما يروى في الفرق بين منهج المتكلمين وطريق الصوفية، تلك الواقعة التي يحكيها بعض المؤرخين عن المتكلم الهائل فخر الدين الرازي^(١). . . تقول الواقعة: لَمَّا دَخَلَ الإِمَامُ فُخْرُ الدِّينِ الرَّازِي هُرَّاءَ، أَتَاهُ مَنْ بَهَا مِنَ العُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ وَالسُّلَاطِينِ وَالأَمْرَاءِ، وَسَأَلَ يَوْمًا: «هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَن زِيَارَتِنَا؟» قَالُوا: نَعَمْ، بَقِيَ رَجُلٌ صَالِحٌ مُنْقَطِعٌ فِي زَاوِيَةٍ. قَالَ الرَّازِي: أَنَا رَجُلٌ وَاجِبُ التَّعْظِيمِ، وَأَنَا إِمَامُ المُسْلِمِينَ، فَلِمَ لَمْ يَزِرْنِي؟ فَقَالُوا: لِذَلِكَ الرَّجُلُ كَلَامُ الرَّازِي، فَمَا تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ أَصْلًا، وَوَقَعَ بَيْنَهُمَا الخِلَافُ، فَصَنَعَ أَهْلُ البَلَدَةِ طَعَامًا، فَدَعَوْهُمَا، فَأَجَابَا الدَّعْوَةَ، وَاجْتَمَعَا فِي حَديقَةٍ. فَسَأَلَهُ الرَّازِي عَن سَبَبِ تَخَلُّفِهِ عَن زِيَارَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ فَقِيرٌ لَا شَرَفَ فِي زِيَارَتِي، وَلَا نَقْصَ فِي تَخَلُّفِي عَنْهَا. قَالَ الرَّازِي: هَذَا، هُوَ جَوَابُ أَهْلِ الأَدَبِ (يَقْصِدُ الصُّوفِيَّةَ) فَقُلْتُ لِي حَقِيقَةُ الحَالِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لِأَيِّ شَيْءٍ وَجِبْتَ زِيَارَتِكَ؟ قَالَ الرَّازِي: أَنَا إِمَامُ المُسْلِمِينَ، وَوَاجِبُ التَّعْظِيمِ. قَالَ: إِنْ افْتَخَرْتُكَ بِالعِلْمِ، وَرَأْسِ العُلُومِ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ عَرَفْتَهُ تَعَالَى؟ قَالَ الرَّازِي: بِمِائَةِ البَرَاهِينِ. قَالَ: البَرَهَانُ لِإِزَالَةِ الشُّكِّ، وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي قَلْبِي نُورًا لَا يَدْخُلُ مَعَهُ الشُّكُّ، فَضَلًّا عَن الحَاجَةِ إِلَى البَرَهَانِ. . . فَاتَّزَّ هَذَا الكَلَامُ فِي قَلْبِ الرَّازِي، وَتَابَ فِي ذَلِكَ المَجْلِسِ. . . وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ،

(١) هو الإمام: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي، المعروف بابن خطيب الري، توفي بهراة سنة ٦٠٦ هجرية. راجع ترجمته في: وفيات الأعيان ٦٠٠/١ - طبقات الشافعية ٣٥/٥ - عيون الأنباء ٢٣/٢ - تاريخ الحكماء للشهرزوري ٣٩٢ - الوافي بالوفيات ٢٤٨/٤ - ميزان الاعتدال ٣٢٤/٢ - لسان الميزان ٤٢٦/٤ - مرآة الجنان ٧/٤ - البداية والنهاية ٥٥/١٣ - شذرات الذهب ٢١/٥. وهناك (عشرات) الأبحاث والدراسات والترجمات الأخرى، لفخر الدين الرازي.

الشيخ نجم الدين كبرى^(١) ومن هنا نفهم السر وراء بكاء الرازي في بعض المناسبات قائلاً: «يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام»^(٢) ومن هنا نفهم بيته الشعري الرائع [من الطويل]:

نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عَقَالٌ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ^(٣)

ولنعد إلى إمامنا الجيلاني في أيامه ببغداد، فنراه هذه المرة في ثوبٍ جديدٍ، فهو في هذه اللوحة، ليس الفقيه الجالس على بساط الدرس، ولا اللغوي الباحث في دقائق العربية، ولا الناظر في عقائد المتكلمين . . وإنما:

الملامتي:

في الفتوحات المكية تأتي إشارة موجزة للإمام الجيلاني، يقول فيها ابن عربي «وممن تحقّقوا بالملامتية، شيخنا عبد القادر الجيلاني»^(٤). . فما هي الملامتية، وكيف كانت ملامتية الإمام الجيلاني؟

من القواعد الأساسية في الطريق الصوفي، أن يعمل المبتدئ حيناً من الدهر في إصلاح حال نفسه، فللصوفية مفهومٌ خاص للنفس الإنسانية، يتلخّص في أن النفس [موطن كل سوء] ومن هذا المفهوم وجبت ضرورة مجاهدة النفس، ومخالفتها، ولومها لوماً شديداً.

وفي بلاد فارس، في خراسان على التحديد، ظهر قومٌ من أهل الطريق الصوفي، كان جُلُّهم: إصلاح حال نفوسهم، بلومها اللوم الشديد. .

(١) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة [حيدرآباد، الهند] المجلد الأول، ص ٤٥٠.

وبخصوص (نجم الدين كبرى) يمكن الرجوع إلى الفصل الذي عقده له في كتابنا: شعراء الصوفية المجهولون [مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة].

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٥/٢٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

(٤) ابن عربي: الفتوحات المكية [الطبعة الكاملة - دار الكتب العربية] المجلد الثاني، ص ٢١.

فُسُموا - على غير قياس - بالملامية والملامتية، والتسمية الثانية هي الأشهر.

وتدفق تيار الملامتية من أحوال صوفية خراسان، خاصة حَمْدُون القَصَّار، الذي عدَّه السُّلَمي: شيخ أهل الملامتية^(١). فقد كان حمدون (المتوفى سنة ٢٧١ هجرية) شيخ الملامتية بخراسان، ومنه انتشر مذهب الملامتية في سائر البلدان.

واشتهر من الملامتية كثيرون، منهم: أبو عثمان الحيري سنة ٢٩٨ هجرية، شاه بن شجاع الكرمانى سنة ٣٠٠ هجرية، محفوظ النيسابوري سنة ٣٠٣ هجرية، وأبو علي المرتعش سنة ٣٢٨ هجرية، وأبو عمرو الزجاجي سنة ٣٤٨ هجرية، وأبو عبد الله الشعراني سنة ٣٥٣ هجرية، وأبو بكر النيسابوري سنة ٣٦٠ هجرية، وعليّ بن بِنْدَار، وأبو عبد الله الروغندي، وابن عُليان، والبوشنجي، والنصراباذي، وأبو عمرو إسماعيل بن نجيد السُّلَمي المتوفى بمكة سنة ٣٦٦ هجرية . . وغيرهم.

ومع أن الملامتية فرقة صوفية، إلا أنها تميزت بطابع خاص، جعل مؤرخي التصوف ومشايخه يعقدون في مؤلفاتهم فصلاً تختص بالفرق بين الصوفيِّ واللامتِي^(٢). وبشكلٍ عام؛ فإن الملامتِي هو الذي لا يرى في الدنيا أي خير، ولا يرى في طاعته لربه مدخلاً للعُجب بالنفس، ولا يرى لنفسه أي فضل . . بل نراهم يبالغون في تحقير نفوسهم أشد المبالغة، فكان منهم مَنْ يفعل الأفعال المنكرة كي يستهجنه معاصروه، فيزداد إذلال نفسه! لكن ابن عربي حين استخدم لفظ (الملامتية) ووصف به الإمام الجيلاني؛ كان يتوسّع بمفهوم اللفظ، بحيث لا يقتصر على ما ذكرناه، ولا يدل على طائفة معينة من الصوفية. بل هو: اسمٌ لصنفٍ من أهل الله يعيشون في كل

(١) السلمي: طبقات الصوفية [دار الشعب] ص ٢٩.

(٢) راجع الفصول المخصصة لذلك في: رسالة الملامتية للسُّلَمي، الفتوحات المكية لابن عربي، عوارف المعارف للشهروردي، كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي.

زمان ومكان، لهم صفات يتميزون بها من غيرهم، وهم يزدون وينقصون بحسب اختلاف الأوقات^(١). يقول ابن عربي في الباب الثالث والعشرين من فتوحاته:

«اعلم أيُّدك الله، أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المُسمَّين بالملامية، وهم الرجال الذين حَلُّوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة، وهذا يسمَّى مقام القربة في الولاية.. هم رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية، في زوايا الكون، خشية أن تمتد إليهم عينٌ فتشغلهم.. فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم، الغامضون. لا يُعرفون بين الناس بكثير عبادة، ولا ينتهكون المحارم سِرًّا وعلناً»^(٢).

وكان الإمام الجيلاني في هذه المرحلة من حياته ملامتياً عارماً؛ وهي المرحلة التي تلت تلقيه العلم على مشايخ بغداد، حيث خرج إلى الخرائب والبوادي ليقضي فيها قرابة ربع قرن! فلتأمل وصف ابن عربي السابق للملامية، ثم نقرأ هذه الفقرة التي رواها الشطنوفي بالإسناد المتصل عن الإمام الجيلاني، حيث يقول:

«أقمتُ في صحارى العراق وخرابه خمساً وعشرين سنة، متجرِّداً سائحاً، لا أعرف الخلق ولا يعرفونني.. وكانت الدنيا وزخارفها وشهواتها تاتيني في صور عجيبة، فيحمني الله من الالتفات إليها.. وما أخذتُ نفسي في حال البداية بطريق من طرق المجاهدة إلا

(١) د. أبو العلا عفيفي: الملامية والصوفية وأهل الفتوة، ص ٢٠.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية، تحقيق د. عثمان يحيى، السفر الثالث، ص ١٥٤.

ولازمته. واقمتُ زماناً في خراب المدائن، أخذاً نفسي
بطريق المجاهدات، فمكثتُ سنةً أكل المنبوذ.. واقمتُ
في خراب الكَرْخ سنين لا اقتات فيها إلا بالبردى.
ودخلتُ في الف فُن حتى أستريح من دنياكم، وما كنتُ
أعرف إلا بالتخارس والبله والجنون.. وما هالني شيء
إلا سلكته»^(١).

هذه الملامتية العارمة التي أمعن فيها الإمام الجيلاني، كانت طريقاً
وعراً من طرق السير إلى الله.. طريقاً لا يرتاده إلا الصفوة من العابدين،
الذين استحقوا في النهاية تلك الصفات الربانية التي اختتم بها ابن عربي
ذلك الفصل الذي خصَّصه للملامتية: «ثم إن هذه الطائفة، إنما نالوا هذه
المرتبة عند الله، لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله، أو تقلق بكونٍ من
الأكوان سوى الله، فليس لهم جلوس إلا مع الله، ولا جلوس إلا مع الله.
فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون»^(٢).

وهناك العديد من وقائع هذه المرحلة الروحية، يذكرها مؤرخو الإمام
الجيلاني على لسانه، يهمنها منها هنا واقعة مشهورة وردت في معظم المصادر
التاريخية الخاصة بالإمام. فقد روي أن الجيلاني كان في إحدى خلواته،
فانشق عن الجدار ضوءً شديداً، وسمع صوتاً يقول له: «يا عبد القادر، أنا
ربك، وقد أحللتُ لك المحرّمات!» فقال الإمام: «إخساً يا لعين..» وبعد
سنوات طويلة، سأله معاصروه عن كيفية معرفته أن هذا الصوت كان من
الشیطان، فقال: «بقوله أحللتُ لك المحرّمات». وأهمية هذه الواقعة تكمن
في بيان تمسك المنهج الصوفي القادري بالشرعية وأحكامها في كل الأحوال،
فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تسقط أحكام الشرع، مهما تعمق الصوفي

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص ٨٥ - التادفي: قلائد الجواهر، ص ١٢.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية، السفر الثاني، ص ١٥٨.

في سيره إلى الله . وفي هذا أبلغ الرد على بعض المنتسبين للتصوف، الذين يُسقطون الجدار الفاصل بين الحلال والحرام، بدعوى أنهم (الواصلون) إلى الله . فكيف يطيحُ الواصل إليه، بما قرره تعالى من شرائع! ولقد عينا بإيراد هذه الواقعة بالذات، لتأكيد هذا المعنى الصوفي الكامن وراءها . . المعنى الذي نرى (بعض) الطرق الصوفية المعاصرة، لا تدركه .

وكان الإمام في هذه المرحلة (الملامتية) من حياته، يتجول في أرض الله، فيسيح في الصحارى معظم الوقت، ويدخل بغداد مرة بعد مرة . وفي إحدى المرات، وقع في نفسه أن يخرج من بغداد ولا يعود إليها - لكثرة الفتن بها - بعد ذلك . يحكي الإمام :

«فأخذتُ مصحفي وعلقتَه على كتفي، ومشيتُ إلى باب الحلبَة (أحد أبواب بغداد) لأخرج منه إلى الصحراء، فقال لي قائلٌ: «إلى أين تمشي» ودفعني دفعةً خرت منها، وقال: «ارجع فإن للناس فيك منفعة».. ثم طرقتني أحوالٌ أشكلت عليّ، فكنت أتمنى على الله أن يسهل لي مَنْ يكشفها. فلما كان من الغد اجتزتُ بالمظفرية (أحد أحياء بغداد) ففتح رجلٌ باب داره وقال لي: يا عبد القادر إيش طلبت البارحة؟ فسكتُ ولم أدري ما أقول. فاغتازني ودفع الباب في وجهي دفعةً عظيمةً حتى طار الغبار من جوانب الباب إلى وجهي.. فلما مشيتُ قليلاً، تذكرتُ الذي سألت الله، ووقع في نفسي أن الرجل من الأولياء، فرجعت أطلب الباب، فلم أعرفه، فضاق صدري.. وكان ذلك الرجل: الشيخ حمّاد الدبّاس - ثم عرفته بعد ذلك وصحبته، وكشف لي ما كان يُشكل عليّ»^(١).

(١) التادفي: قلائد الجواهر، ص ١٥ .

ثم ينقلب الحال بالإمام الجيلاني، فيُنقل إلى مراتب أعلى من مرتبة أولئك الملامية. وهذه النقلة لم تحدث إلا بعد جذبة شديدة:

المجنوب:

يروى العلامة الدُميري^(١) عن أبي العباس القسطلاني أنه قال: سمعتُ الشيخ زاهر بن رستم الأصبهاني - إمام مقام إبراهيم بمكة - يقول: سمعتُ الشيخ أحمد خادم الشيخ حمّاد يقول: دخل الشيخ عبد القادر على الشيخ حمّاد الدّباس يزوره، وكان الدّباس قد رأى في منامه أنه اصطاد بازيًا، فلما دخل الشيخ عبد القادر، نظر إليه الدّباس نظرةً ثاقبةً، فانخلع قلبه. . . وخرج من عنده هائمًا على وجهه.

هذه الجذبة الروحية التي حدثت للإمام الجيلاني بفعل نظرة الدّباس المشحونة بالروعة^(٢) - والتي عُرف بعدها الإمام بلقب: باز الله الأشهب - طار

(١) الدُميري: حياة الحيوان الكبرى (دار إحياء التراث العربي - بيروت) ١/١٠٠.

(٢) تُذكرنا تلك الجذبة الروحية، بالعديد من الجذبات التي وقعت لطائفة من كبار أهل التصوف: فقد دخل إبراهيم بن أدهم طريق التصوف بعد سماعه لنداء خفي، وهو في رحلة صيدٍ لاهيةٍ مع أقرانه من أولاد الأمراء، فإذا به يُنادى: يا إبراهيم، ألهذا خلقت؟! فترك ما كان فيه وتزهد. . . وكان بشر بن الحارث، المعروف بالحافي، يلهو بداره مع جمعٍ من أصحابه. فطرق الباب رجلًا، فلما فتحت له الجارية سألتها: صاحب هذه الدار خُرّام عبد؟ قالت الجارية: بل هو خُرّ. قال الرجل: صدقت، فلو كان عبدًا، لحفظ آداب العبودية! فلما سمع بشر من الجارية ما دار من حوار، قام من مجلس اللهو ليلحق بالرجل، فلم يدركه، وكان آنذاك حافيًا. فظل طوال عمره لا يلبس الأحذية، وكان يقول: لقد خاطبني ربي وأنا على هذه الصورة. . . ويروى أن أبا الغيث بن جميل، قطب اليمن، كان قاطع طريق؛ فسمع في ليلةٍ قارئًا يتلو الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾. فترك ما كان فيه، وسار في طريق الزهد حتى صار إلى ما صار إليه. . . وكان فريد الدين العطار جالسًا أمام دكان عطارته، فمرّ عليه درويشٌ وأمره أن يفتح فمه، ووضع فيه قطعة من الحلوى، فلما تذوق فريد الدين حلاوتها قام وتبع الدرويش؛ وأصبح بعد ذلك من كبار رجال التصوف. . . وكان جلال الدين الرومي - صاحب ديوان المشنوي - فقيهاً يشتغل بعلم الكلام والقياس العقلي، وكان له عددٌ كبير من التلاميذ، وفي غمرة ذلك، التقى بشمس الدين التبريزي، فحدث انقلابٌ وتحولٌ في مساره الروحي، على نحو ما ذكره في إحدى ربايعياته قائلاً:

عندما اشتعلت نيرانُ الحبِّ في صدري،

بعدها غقل الإمام الجيلاني، حتى أنه عُرف باسم: عبد القادر المجنون.. يقول الإمام: طرقتني ذات ليلة حالاً، فصرختُ صرخةً عظيمة، فسمع العيارون صرختي ففزعوا من المسالحة، فجاءوا حتى وقفوا عليّ وأنا مطروحٌ على الأرض، فعرفوني، فقالوا: هذا عبد القادر المجنون، أزعجتنا لا ذكرك الله بخير^(١).

وصار الجيلاني في زمن الجذب مشدوهاً غائباً في كثير من الأحيان عن الكون، تتنابه أحوال الصعق والمحق فتأخذ بناصيته والأقدام، حتى أنه عاين ذات مرة حالاً، فانطرح على الأرض كالميت؛ وجاءوا بالكفن والغاسل، وجعلوه على المغسل ليغسلوه تمهيداً لدفنه.. ثم سري عنه الحال.

وفي سنة ٥٢١ هجرية، جاء أوان بروز الإمام الجيلاني لأهل زمانه. وانتهت نشأته في كهف الغيرة الإلهية، لتبدأ نشأته الأخرى في كنف العناية؛ فخرج إلى أهل الزمان وعليه أعلام (الولاية) وله من العمر خمسون سنة.. ونودُّ هنا، قبل التعرف إلى الجيلاني ولياً، أن نتلث حيناً عند أولئك الأساتذة الذين تلقى عنهم العلوم وسلك الطريق بهديهم.. ذلك أن معرفة المحيطين بالإمام، والوقوف عند بعض معاصريه، من شأنه أن يُسهّم في رؤيتنا له على نحو أفضل.

احرقْ لهيبها كل ما كان في قلبي.

فازدريتُ العقلَ الدقيق والمدرسة والكُتّاب،

وعملتُ على اكتساب صناعة الشعر، وتعلّمتُ النظم.

وتحتاج هذه اللحظات العارمة التي يحدث فيها (الانقلاب الروحي) إلى دراسة موسعة، تكشف عن طبيعة التحولات الروحية عند كبار أئمة التصوف، وعن طبيعة ذلك المسار الذي يتخذه الواحد منهم بعد سماعه لهاتفٍ معين، أو وقوع حادثةٍ خاصة، أو حتى نظرة كتلك التي نظرها الدّباس لعبد القادر الجيلاني.

ويغلب على ظني، أن هذه اللحظة هي بمثابة (انفجار) لعوامل روحية كامنة في نفس هذا الصوفي أو ذاك، عوامل كانت تنتظر إشارة البدء للعروج إلى المقامات الروحية العالية..

(١) يقول التادفي في تعليقه على هذه الحكاية (قلائد الجواهر، ص ١٥): العيارون، جمع عيار، وهو في اللغة كثير المجيء والذهاب، وهنا هم اللصوص. والمسالحة هم العرس، لأنهم يكونون أصحاب السلاح.

شيوخ الطريق

كانت بغداد في عصر الجيلاني، زاخرةً بمن لا حصر لهم من أهل التصوف وأربابه. وهذا يعني أن الإمام لم يبرز فجأة، ولا كان نسيج وحده، وإنما كان (فرداً) من السائرين إلى الله. . ولا بد عند متابعة المنحنيات الشخصية في حياة الجيلاني الروحية، أن نتلث حيناً عند معاصريه. ذلك أن معرفتهم تسهم في التعرف إليه على نحو أتم؛ فهم (أفراد) الطريق الذي سار فيه الجيلاني.

وهناك العديد من الشخصيات الصوفية التي عاصرت الإمام ببغداد، وكانت على صلة وثيقة به؛ فمن جملتهم: محمود الكردي، بقاء بن بطو النهرملكي، عدي بن مسافر، علي بن الهيبي، أبو النجيب الشهروردي، صدقة البغدادي، محمد بن قائد الأواني، عثمان الطريفني، أحمد الصرصري. . وغيرهم^(١).

ولما كان من العسير علينا هنا، أن نستعرض سائر معاصري الإمام، ووقائع اتصالهم به؛ فالمقام يضيق. . ولذا، فسوف نقتصر على سيرة أربعة

(١) المشايخ الذين ذكرناهم هنا، كانوا ضمن الحاضرين ذلك المجلس الذي قال فيه الجيلاني: قلبي هذه على رقبة كل ولي لله. . وهو المجلس الذي ستوقف عنده في الفصل التالي.

منهم، كانت لهم صلة أوثق بالإمام. وهؤلاء الرجال الأربعة: اثنان منهم من شيوخ الجيلاني الذين أُرثوا فيه (الدَّبَّاس - المُخْرَمِي) واثنان من الشيوخ الذين تربُّوا على يديه وأثر هو فيهم (ابن الهيثمي - السهروردي) فنكون بذلك قد ألقينا الضوء على بعض أساتذة الجيلاني^(١)، وبعض تلاميذه^(٢)؛ ممن نالوا - في ميدان التصوف - شهرةً واسعةً.

الشيخ حمَّاد الدَّبَّاس:

هو الشيخ الزاهد: حمَّاد بن مسلم بن دُدُوه الدَّبَّاس الرَّحْبِي، المتوفى سنة ٥٢٥ هجرية. عُرف بلقب (الدَّبَّاس) لأنه كان يعمل في مصنع للدَّبَّس (الحلوى) بعد مزاولته لعدة مهن وصنائع في طلب الحلال^(٣)؛ أما لقبه (الرَّحْبِي) فهو نسبةٌ إلى موضعٍ يُقال له: رَحْبَة مالك بن طَوْق^(٤).

بدأ الدَّبَّاس حياته يتيماً، إذ توفي أبواه وهو في الثالثة من عمره؛ ونشأ ببغداد وسمع شيئاً من الحديث النبوي، ثم جاهد نفسه بأنواع المجاهدات الروحية، وساح في الأرض على طريقة الصوفية، والتقى بالعديد من

(١) اشتغل الجيلاني بالقرآن والقراءات، ثم تفقه على يد: أبي الوفاء علي بن عَقِيل، وأبي الخطَّاب محفوظ الكلوداني، وأبي الحسن محمد بن يَعْلَى الفَرَّاء، وأبي سعيد المخرمي. وسمع الحديث النبوي من جماعة منهم: أبو غالب محمد الباقلاني، وأبو سعد محمد بن خُنَيْش، وأبو الغنائم الرُّسِّي، وأبو القاسم الكَرَّخي، وأبو عثمان الأصبهاني، وأبو محمد القاري، وأبو بكر التَّمَّار، وأبو طالب عبد القادر بن يوسف، وابن عمه أبو طاهر عبد الرحمن بن يوسف، وأبو البركات هبة الله بن المبارك السقْطِي. . وغيرهم؛ وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي (بهجة الأسرار، ص ١٠٦) ويلاحظ هنا أن المذكورين هنا، هم أساتذة الإمام في غير التصوف.

(٢) أفاض الشطنوفي والتادفي في ذكر تلاميذ الإمام وأتباعه ومريديه الذين لبسوا حرقه التصوف على يديه. . انظر: بهجة ص ١٠٧ وما بعدها - القلائد ص ٣١ وما بعدها.

(٣) ينقل ابن العماد عن الدَّبَّاس قوله: إني بالغتُ في طلب الرزق الحلال بكدِّ يميني، وعملتُ في كل شيءٍ، إلا أنني ما كنتُ غلاماً لِقَصَّابٍ ولا لوقادٍ ولا لكتَّاسٍ؛ فإن هذه الحرف تؤدي إلى إسقاط المروءة (شذرات الذهب ٧٤/٤).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥٩٤/١٩.

المشايخ، ثم استقر أخيراً ببغداد وسكن بحيّ المظفرية، وصار له شأن كبير بين معاصريه.

وكان الدُّبَّاس - بعد اشتهاه أمره - يقبل النُّذْرَ التي ينذر بها الناس. ثم بلغه الحديث الشريف: «لا تذرُوا، فإن النُّذْرَ لا يُغني من القَدْرِ شيئاً، وإنما يُستخرج به من البخيل»^(١). فكره أكل مال البخيل، وصار يأكل بالمنامات؛ فكان الرجل يرى في المنام هاتفاً يدعو لإعطائه شيئاً معيناً، فيجيء الرجل إليه حاملاً ما أمر بإعطائه في المنام^(٢). . يقول ابن العماد: وكان الدُّبَّاس مسلوب الاختيار، تارة زيُّه زيُّ الأغنياء، وتارة زيُّ الفقراء؛ متلون كيف أدير - من الله - دار، وأيُّ شيء كان في يده جاد به، وكانت المشايخ بين يديه كالميت بين يدي الغاسل^(٣).

ومع أن الدُّبَّاس كان أمياً، إلا أنه كان صادق العبارة. وقد جمع تلاميذه مجلدات من أقواله؛ فمن هذه الأقوال: العلمُ محجَّةٌ، فإذا طلبته لغير الله صار حُجَّةً - إذا أحبَّ الله عبداً أكثر همَّه فيما فرط، وإذا أبغض الله عبداً أكثر همَّه فيما قسمه له^(٤) - انظر إلى صنعه تستدلُّ عليه، ولا تنظر إلى صنع غيره فتعمى عنه - مَنْ هرب من البلاء لا يصل إلى باب الولاء^(٥) - أقرب الطرق إلى الله تعالى حُبُّه، وما يصفى حُبُّه حتى يبقى المحبُّ روحاً بلا نفس^(٦).

ورويت كراماتٌ كثيرةٌ حول الدُّبَّاس، منها أنه رأى أميراً مخموراً، فأنكر عليه، فتناول الأميرُ عليه وقام ليركب حصانه. فقال الدُّبَّاس: «يا فرس الله،

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم بلفظ قريب من حديث أبي هريرة.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢٣/١٠.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ٧٤/٤.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥٩٥/١٩.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ٧٤/٤.

(٦) التادفي: فرائد الجواهر ص ١٠٣.

تُخذيهِ».. فاندفعت به الفرس كالبرق الخاطف، ولم يرَ الناسَ الأمير بعدها^(١). وأياً ما كان من صدق جملة تلك الكرامات، فقد نال بها الدُّبَّاس مكانة رفيعة بين معاصريه، إلا أن قلوب بعضهم امتلأت منه حقداً، فشنَّعوا عليه. وكان أكثرهم تشنيعاً: ابن عقيل وابن الجوزي. يقول ابن الأثير: ورأيتُ الشيخَ أبا الفرج بن الجوزي قد ذمَّه وثلبه، ولهذا الشيخُ أسوةٌ بغيره من الصالحين، فإن ابن الجوزي قد صنَّف كتاباً سمَّاه (تلبيس إبليس) لم يُبق فيه على أحدٍ من سادة المسلمين وصالحهم^(٢).

وغالباً ما تتضمنُ ترجمات الدُّبَّاس عبارة: «وهو أستاذ عبد القادر الجيلاني»^(٣). كما ورد في البهجة، أن الجيلاني: صحب الشيخ العارف، قدوة المحققين، أبا الخير حمَّاد بن مسلم الدُّبَّاس، وأخذ عنه علم الطريقة^(٤). وهكذا نجد ارتباط الدُّبَّاس بالجيلاني وثيقاً؛ فحيثما ذُكر أحدهم، ذُكر الآخر.

وحول طبيعة العلاقة بين الجيلاني وشيخه، مرَّ علينا فيما سبق واقعة اللقاء بينهما، وكيف كان ذلك اللقاء بهاتفٍ ربانيٍّ تجلَّى على قلب الشاب الجيلاني وهو في سنوات التلويح وطوارق الأحوال. كما مرَّ علينا دخول الجيلاني من باب الجذب، بعد تلك النظرة الثاقبة التي خلعت بها الدُّبَّاس قلب الجيلاني فخرج من عنده هائماً على وجهه؛ ويبدو أن الدُّبَّاس كان مختصاً بتلك النظرة الجاذبة الثاقبة، فقد روى الشيخ أبو النجيب السُّهروردي أنه - في زمن بدايته - أتى الدُّبَّاس واشتكى إليه كثرة المجاهدات وبُطء الفتح، فأمره

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦٧١/١٠.

(٣) انظر ترجمة الدُّبَّاس في: المنتظم ٢٢/١٠ - الكامل ٦٧١/١٠ - تاريخ الإسلام ٢٦٦/٤ - دول الإسلام ٤٧/٢ - سير أعلام النبلاء ٥٩٤/١٩ - العبر ٦٤/٤ - أئمة المختصر ٥٩/٢ - مرآة الزمان ٨٥/٨ - فلائد الجواهر ١٠٣ - النجوم الزاهرة ٢٤٦/٥ - شذرات الذهب ٧٣/٤.

(٤) الشطنوفى: بهجة الأسرار ص ١٠٦.

أن يحمل قِدرًا من اللبن ويمرُّ به في السوق، وهو بملابسِ الدرس - قاصداً بذلك إذهاب إعجابه بنفسه^(١) - يقول أبو النجيب: وصار الناس يقفون وينظرون إليّ، وكنتُ كلما خطوتُ خطوةً تذوب نفسي كما يذوب الرصاص على النار، فلما قاربتُ دكان دِبَاسة الشيخ حمّاد، رأيتُه واقفاً على بابه كالمنتظر لي؛ فنظرتُ نظرةً ملأني بها، وغاب عقلي، وسقطت على وجهي، وتبدّد اللبن على الأرض. . وأنا إلى الآن في بركة تلك النظرة^(٢).

وتعدّ صحبة الجيلاني للدّبّاس مثلاً لصحبة المرید للشيخ بالمعنى الصوفي، فقد كان الجيلاني يتأدّب معه غاية الأدب، ويحفظ حرمة ويُعلي قدره مهما فعل معه من قسوة. وقد بلغت قسوة الدّبّاس أنه كان يعبر معه قنطرة، وكان الوقت ليلاً والزمان شتاءً، فإذا بالشيخ حمّاد يدفعه في الماء! كانت ليلة جُمعة، فقال الجيلاني: «نويت غُسل الجمعة» ثم توضّأ وقام لصلاة الفجر. كما كان الدّبّاس يتعمّد الإساءة إليه كلما رآه، ويقول: «ما الذي أتى بك من درس الفقه، اذهب إلى الفقهاء فأنت منهم»^(٣) ولما رأى تلامذة الدّبّاس ذلك، ظلّوا يؤذون الجيلاني وهو محتمل أذاهم؛ فعرف الدّبّاس ذلك فانتهرهم: «يا كلاب، إنما أفعلُ معه ذلك لإختبره، فأراه كالجبل».

ثم صار الدّبّاس يقوم للجيلاني كلما جاء إليه، ويرحّب به قائلاً: «مرحباً بالجبل الراسخ والطود المُنيف الذي لا يتحرك». وسأله مرّة في المجلس: ما الفرق بين الحديث والكلام؟^(٤) قال الجيلاني: الحديث ما

(١) قام الصوفي المشهور، محمد بن عبد الحق بن سبعين، بإجراء مماثل مع تلميذه أبي الحسن الششتري، كي يذهب عنه غرور نفسه (راجع كتابنا: شعراء الصوفية المجهولون).

(٢) بهجة الأسرار ص ١٤٤.

(٣) نظر الصوفية إلى العلم الفقهي على أنه يقلُّ درجةً عن العلم الوهبي، فكانوا يطلقون على الفقه (علم الظاهر) في مقابل معارفهم الدنية (علم الباطن).

(٤) الحديث والكلام من أدق المصطلحات الصوفية، تأمل إجابة الإمام الواردة هنا.

استدعيّت من الجواب (الإلهي) والكلام ما صدمك من الخطاب؛ وانزعاج القلب لدعوة الانتباه أرجح من أعمال الثقلين. قال الدُّبَّاس: أنت سيد العارفين في عصرك.

وتروى المصادر أن الدُّبَّاس تنبأ بعلو شأن الجيلاني في ميدان التصوف، فقد نقل الشطنوفى أنه: «ذُكر الجيلاني وهو يومئذٍ شاب، عند الشيخ حمّاد فقال عنه: رأيتُ على رأسه عَلَمين للولاية وقد نُصبا له من البَهْمُوتِ الأسفل إلى المَلَكُوتِ الأعلى، وسمعتُ الشاؤوس^(١) يصيح له في الأفق الأعلى بألقاب الصديقيين»^(٢).

وأخيراً، فخير ما نختم به هذا العرض الموجز لعلاقة الجيلاني بالدُّبَّاس، هو عبارة سِبْطِ ابن الجوزي: لو لم يكن لحمّاد من الفضائل التي اتّصف بها في زهادته وطريقته ومكاشفته، إلا أن الشيخ عبد القادر الجيلاني أحد تلامذته، لكفى^(٣).

الشيخ أبو سعد المُخْرَمِي:

هو شيخ الحنابلة ببغداد، العلامة: أبو سعد (سعيد) المبارك بن علي بن الحسن بن بندار المُخْرَمِي، المتوفى - بإجماع المؤرخين^(٤) - سنة ٥١٣ هجرية، بعد أن طعن في السَّنِّ.

والمُخْرَمِي لقبٌ مشهور، عُرف به العديد من العلماء البغداديين المشاهير^(٥)، وهو نسبةٌ إلى (محلّة المُخْرَم) الواقعة شرقي بغداد، نزلها

(١) الشاؤوس: لفظة صوفية اصطلاحية، تشير إلى حاجب الولايات.

(٢) الشطنوفى: بهجة الأسرار ص ١٤٥.

(٣) سبّط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٨٦ - التادفي: قلائد الجواهر ص ١٠٣.

(٤) انظر ترجمته في: طبقات الحنابلة ٢/٢٥٨ - المنتظم ٩/٢١٥ - تاريخ الإسلام ٤/٢١٢ -

العبر ٤/٣١ - سير أعلام النبلاء ١٩/٤٢٨ - مرآة الزمان ٨/٥٤ - البداية والنهاية ١٢/١٨٥ -

ذيل طبقات الحنابلة ١/١٦٦ - قلائد الجواهر ٢٣ - شذرات الذهب ٤/٤٠.

(٥) من العلماء الملقّين بالمُخْرَمِي، غير المبارك بن علي: أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله =

بعض أولاد يزيد بن المُخَرَّم، فسُمِّيت به^(١).

عاش المُخَرَّمي حياة العلماء، فبدأ بدراسة الفقه الحنبلي على يد القاضي أبي يَعلى، ثم على يد الشريف أبي جعفر بن أبي موسى، والقاضي يعقوب بن سُطورا البَرْزبيني، فلأزم الأخيرين حتى برع في الفقه الحنبلي وساد^(٢). وروى الحديث النبوي عن أبي جعفر بن المسلمة، وأبي الغنائم بن المأمون، وأبي يعلى، وابن المهدي، والصريفيني، وابن النُّقُور، وغيرهم^(٣).

ويصف المؤرخون أخلاق المُخَرَّمي بأجمل الأوصاف، فهو النزيه العفيف، حَسِن السيرة جميل الطريقة سديد الأفضية. الخ. كما يُشير بعضهم إلى أنه كان شغوفاً بالكتب، وأنه جمع قدراً كبيراً من الكتب، وضعها في مدرسته التي بناها بباب الأزج، والتي سيتولاها من بعده الإمام الجيلاني، أشهر تلاميذه.

ويقصُّ الجيلاني قصة اللقاء الأول مع المُخَرَّمي، فيقول: أقمتُ في البرج المُسمَّى الآن ببرج العجمي إحدى عشرة سنة، ولطول إقامتي فيه سُمِّيَ برج العجمي^(٤)؛ وكنتُ بايعتُ الله تعالى فيه أن لا أكل حتى أقم، ولا أشرب حتى أسقى. . فسمعت صارخاً من باطني ينادي الجوع، فلم أرتع له. فاجتازني أبو سعيد المُخَرَّمي، فسمع الصوت الصارخ من باطني، فدخل عليّ وقال: ما هذا يا عبد القادر؟ قلت: هذا قلق النفس، أما الروحُ فساكنة في

البغدادي - أبو الفضل أحمد بن ملاعب البغدادي - عبد الله بن جعفر المدني - عبد الله بن محمد البغدادي - أبو جعفر محمد القرشي البغدادي. .

(١) وقع تصحيف في لقب المُخَرَّمي ببعض المصادر، فكتب: المخزومي.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤٢٨/١٩.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ٤١/٤.

(٤) يلاحظ هنا أن الإمام الجيلاني كان يُعرف في زمن بدايته باسم (العجمي) نظراً لأنه وفد على بغداد من (جيلان) التي تعدُّ من بلاد العجم.

مولاهَا عَزَّ وَجَلَّ . فقال لي : تعالَ إليَّ بباب الأُزج . فقلت في نفسي : ما أخرجُ من هذه ، إلا بأمر . . فجاءني الخِضْرُ - عليه السلام - وقال لي : قُمْ وانطلقْ إلي أبي سعيد . فذهبتُ إليه ، فإذا هو واقفٌ على باب داره ينتظرني ، وقال لي : ألم يكفك قولِي تعالَ إليَّ ! ثم ألبسني الخِرقة بيده ، ولازمتُ بعد ذلك الاشتغال عليه رضي الله عنه^(١) .

تلك هي قصة اللقاء كما رواها الشطنوفي والتادفي ، والعهدة فيها على الرواة . أما الثابت ، أن الجيلاني قد تتلمذ بالفعل على المُخْرَمِي . وأنه : أخذ عنه علم الطريقة ، وتأدّب به ، ولبس الخِرقة الشريفة من يده^(٢) . . ولبس الجيلاني (خِرْقَةَ الصُّوفِيَّة)^(٣) من يد المُخْرَمِي ، يجعله حلقة من سلسلة صوفية متصلة ، ويجعلنا نتوقف عند (إسناد) الطريقة القادرية ، وهو الإسناد الذي ورد بعده مصادر - باختلافاتٍ طفيفة - ويمكن أن نعتمد في بيان هذا الإسناد على السلسلة التي ذكرها قادريٌّ كبير ، هو الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هجرية ؛ على النحو التالي :

«تلقَى السيد عبد القادر خِرقة العلم الإلهي والتحقيق ، من الشيخ الصالح أبي (سعد) المبارك بن علي (المُخْرَمِي) البغدادي ، وهو تلقى عن شيخ الإسلام أبي الحسن علي بن محمد الهكَّاري . . عن الشيخ أبي الفرج الطرسوسي . . عن أبي الفضل التميمي . . عن أبي بكر الشبلي . . عن أبي القاسم الجُنَيْد . . عن سَرِيٍّ الدين السَّقَطِي . . عن معروف الكَرْنَحِي . . عن داود السطائي . . عن حبيب العجمي . . عن الحسن البصري . . عن علي بن أبي طالب . . عن النبي ﷺ^(٤) .

(١) التادفي : فلائد الجواهر ص ٢٣ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦ .

(٣) خِرقة الصوفية : رداء يرمز لدخول المرید في طريقة صوفية معينة .

(٤) النابلسي : الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (مخطوط ، بتقديم

د . أحمد هريدي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦) ، ص ٤٩ .

وينبغي هنا أن نلاحظ مسألة دقيقة، وهي أن إسناد الطريقة القادرية على النحو السابق لا يعتمد فقط على إلباس الشيخ الخرقه لمريده، وإنما أيضاً على الصحبة والتلقي. وذلك من حيث أن الشُّبلي (أبو بكر دَلْف بن جَحْدَر، المتوفى سنة ٣٢٠ هجرية) كان أول مَنْ قام بإلباس مريديه خرقه معينة^(١)؛ أما قبل ذلك فلم يكن هذا الإجراء معروفاً كعلامة على دخول الطريق.

ويتبقى في العلاقة بين الجيلاني والمُخرمي إشكالٌ تاريخيٌّ؛ فإذا كانت وفاة المُخرمي سنة ٥١٣، وبداية تولي الجيلاني لمدرسته سنة ٥٢١ هجرية. فما هو الحال في السنوات الواقعة بين هذين التاريخين؟

الراجح أن الجيلاني قضى هذه السنوات الممتدة من وفاة شيخه المخرمي إلى وقت توليه المدرسة، في صحبة حماد الدُّبَّاس. . حتى جاء أوان بروز الإمام الجيلاني في ثوب العالم الفقيه المفتي، فهنا كانت مدرسة المُخرمي هي ألبق الأماكن بإقامته. . ثم قام الجيلاني بتوسعتها سنة ٥٢٨ هجرية، وصارت تُنسب إليه.

والآن، عرفنا شيوخ الجيلاني، فبقي أن نعرف تلاميذه الذين صاروا بعد حينٍ شيوخاً:

علي بن الهيتي:

لم ينل علي بن الهيتي من عناية المؤرخين الشيء الكثير، وربما كانت الفقرات التي أوردها عنه الشطنوفي والتادفي، هي أوفى ما كُتب عنه. ولنترك صاحب البهجة يصفه:

= يوجد إسناد الطريقة القادرية بعدة مراجع، منها: البهجة - القلائد - الفيوضات الربانية - جامع الأوراد. الخ.

(١) د. كامل الشبيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ص ٤٣٠.

هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين وأئمة المحققين، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة والأحوال الجليلة والمقامات السنية والهمم العلية. . وهو أحد أركان هذه الطريقة وأعلام علمائها ورؤساء القادة إليها علماء وعملاً وحالاً وزهداً وتحقيقاً. . وهو أحد مَنْ يذكر عنه القطبية. . وهو الذي أتاه الخطاب: يا مَلَكِي تصرّف في مُلْكِي، واشتهر عنه أنه مكث ثمانين سنة ليس له خَلوة^(١) ولا معزل، بل ينام بين الفقراء. وهو أحد مَنْ أظهره الله تعالى إلى الخلق وأوقع له عندهم القبول التام^(٢).

وبعد هذا التقديم (الهائل) من قِبَل الشطنوفي، نراه وقد ترك العنان الجامح، هو والتادفي الذي نقل عنه، وراح يسرد من كرامات عليّ بن الهيثمي ما تنوء بحمله العقول؛ ومع ذلك لم يقدم لنا الكثير من المعلومات حول الرجل!

لكننا نستطيع أن نستخلص من الفقرات، بعض الحقائق عن الهيثمي وطبيعة صلته بالإمام الجيلاني. وأول ما يبدو من ذلك أنه لم يكن يعيش ببغداد، بل كان يقيم بقرية تُسمّى (زَريران) من أعمال نهر الملك؛ وأنه ظل مقيماً بها إلى أن توفي سنة ٥٦٤ هجرية، وقد بلغ من العمر ما يزيد على مائة وعشرين سنة^(٣).

والراجع أن الشيخ عليّ بن الهيثمي لم يكن تلميذاً للإمام الجيلاني بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما كان أقرب إلى التابع أو المحبّ. ففي إحدى عباراته، نراه يقول للإمام: «أنا وجميع أصحابي غلمانك» وهي عبارة تشير إلى أن الهيثمي كانت له مجموعة من المريدين وهو بصحبة الإمام

(١) الخلوّة عند الصوفية، هي إحدى الرياضات الروحية التي يتفرغ فيها الصوفي للعبادة.

(٢) بهجة الأسرار ص ١٥٣.

(٣) بهجة الأسرار ص ١٥٣ - قلائد الجواهر ص ١١٤.

الجيلاني . وهذا - من وجهة النظر الصوفية - لا ينطبق على المرید والتلميذ، وإنما يجوز في حق المحب التابع .

ومع ذلك، فقد ورد أنه: لم يكن أحدٌ من المشايخ الذين عاصروا الإمام الجيلاني، كان أكثر تردداً عليه وخدمةً ووداً له، من الشيخ علي بن الهيثي . . وأنه: كان إذا خرج من زريان ومعه أعيان أصحابه، لزيارة الإمام الجيلاني، يستوقفهم عند نهر دجلة ويأمرهم بالاغتسال والوضوء - وربما اغتسل معهم - ثم يقول لهم: نَقُوا قلوبكم، واحفظوا خواطركم؛ فإننا نريد أن ندخل على السلطان . . فإذا وصل إلى باب مدرسة الجيلاني، يخلع نعليه ويقف حتى يناديه الإمام، فيدخل هو ومن معه^(١) .

وكان الإمام الجيلاني كثير الاهتمام بالهيتي والاحترام له، وكان يجلسه دوماً إلى جواره . . ومع ذلك، فقد كان الهيتي أول مَنْ سارع إلى الانقياد للإمام حين قال (قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله)^(٢) فقام وصعد إلى الإمام وأخذ قدمه وجعلها على عنقه^(٣) .

ونال علي بن الهيتي شهرة واسعة، وتخرَّج على يديه جماعة كبيرة من الصوفية - منهم علي بن إدريس اليعقوبي - وحفظت من أقواله الذوقية نُقولٌ كثيرة، منها قوله: «الشرية ما ورد به التكليف، والحقيقة ما حصل به التعريف؛ فالشرية مؤيدةٌ بالحقيقة، والحقيقة مقيدةٌ بالشرية» . . وقوله: «ما دام التمييز باقياً، كان التكليف متوجباً؛ وعلامه صحة الحال، أن يكون صاحبه محفوظاً في أحوال غلبته (يؤدي الفرائض) . . وقوله: «الحق (تعالى) وراء ما أدركه الخلق بأفهامهم؛ وكل مَنْ كُوشف بشيء، فعلى قدر قوته أو ضعفه» . . وكان - رحمه الله - دائم التمثل بهذه الأبيات:

(١) المرجعان السابقان، ص ١٥٦ - ١١٤ .

(٢) انظر ما سنقله عن ذلك في الفصل التالي .

(٣) بهجة الأسرار ص ١١ .

إِنْ رُحْتُ أَطْلُبُهُ لَا يَنْقُضِي سَفَرِي أَوْجِئْتُ أَحْضَرُهُ أَوْحَشْتُ مِنْ حَضْرِي
فَمَا أَرَاهُ وَلَا يَنْفُكُ عَن نَظْرِي وَفِي ضَمِيرِي وَلَا أَلْقَاهُ فِي عُمْرِي
فَلَيْتَنِي غَبْتُ عَن حِسِّي بِرُؤْيَيْتِهِ وَعَن فُؤَادِي وَعَن سَمْعِي وَعَن بَصْرِي

شهاب الدين السُّهْرَوْرْدِي:

على النقيض من الشيخ علي بن الهيثمي، نال السُّهْرَوْرْدِي قدراً كبيراً من اهتمام المؤرخين ومؤلفي كتب التراجم. وتكفي نظرة واحدة إلى قائمة ترجماته، كي يظهر لنا قدر الاهتمام التاريخي به^(١).

وهناك اثنان من المشاهير في عالم التصوف، يعرفان بالشهاب السُّهْرَوْرْدِي، وكثيراً ما يقع الخلط بينهما. . الأول: شهاب الدين السُّهْرَوْرْدِي (أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، المتوفى سنة ٥٨٦ هجرية) والآخر: شهاب الدين السُّهْرَوْرْدِي (عمر بن محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية) وهكذا يقع الخلط لأنهما: صوفيّان، ويعرفان بنفس الكنية واللقب. وللتمييز بينهما، يمكن أن نطلق على الأول (صاحب حكمة الإشراق) أما الآخر، فهو (صاحب عوارف المعارف) وكلاهما كتابٌ من أشهر كتب التصوف. . وعلى أية حال، فإن مرادنا هنا هو: شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله، صاحب العوارف.

(١) من ترجمات السُّهْرَوْرْدِي التي ذُكرت في هامش سير أعلام النبلاء: معجم البلدان ٢٠٤/٣ - تاريخ ابن الدبيثي (مخطوط) - مرآة الزمان ٦٧٩/٨ - تكملة المنذري ٢٥٦٥/٣ - ذيل الروضتين ١٦٣ - أخبار الزهاد لابن الساعي (مخطوط) - وفيات الأعيان ٤٤٦/٣ - الحوادث الجامعة ٧٤ - تاريخ الإسلام للذهبي (مخطوط) - العبر ١٢٩/٥ - المختصر المحتاج إليه (مخطوط) - دول الإسلام ١٠٣/٢ - المستفاد للدمياطي (مخطوط) - نشر الجمال للفيومي (مخطوط) - طبقات السبكي ١٤٣/٥ - طبقات الأسنوي (مخطوط) - البداية والنهاية ١٣٨/١٣ - العقد المذهب لابن الملقن (مخطوط) - طبقات الأولياء لابن الملقن (مخطوط) - نزهة الأنام لابن دقماق (مخطوط) - الفلاحة والمفلوكون (مخطوط) - النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦ - مجالس العشاق (بالفارسية) - قلائد الجواهر للتادفي ١١١ - مجالس المؤمنين للشوشتري (بالفارسية) - شذرات الذهب ١٣٥/٥ - طرائق الحقائق (بالفارسية).

ولما كان الذهبيّ من أكثر مؤرخي الإسلام اعتدالاً، ومن أحسنهم عرضاً لتراجم الرجال؛ فسوف نترك له مهمة تعريفنا بالسُّهروردي . يقول الذهبيّ :

هو الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أُوحد الصوفية، شهاب الدين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله . . بن محمد بن أبي بكر الصديق، القرشي التيمي البكري السُّهرورديّ الصوفي البغدادي . ولد في رجب سنة تسع وثلاثين وخمس مائة، وقَدِمَ من سُهرورْد^(١) وهو شابُّ أمرُد، فصحب عمه الشيخ أبا النجيب السُّهروردي ولازمه وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، وصحب قليلاً الشيخ عبد القادر . . حدّث عنه ابن نُقطة وابن الدُّبَيْثي وابن النجار والضياء والقُوصي وابن النابلسي والزنجاني وابن عَلَّان وابن الزين والواسطي والأبرقوهي، وآخرون .

قُتل أبوه بسُّهرورْد وله ستة أشهر، في فتنة . . وصار شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين؛ سمع ثم لازم الخلوة ثم عقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه، فكان يتكلّم بكلامٍ مفيدٍ من غير تزويق، ويحضر عنده خلقٌ عظيمٌ، وظهر له القبول من الخاص والعام واشتهر اسمه وقُصِدَ من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خَلْقٍ من العُصاة فتابوا، ونُفِذَ رسولاً (للخليفة) إلى الشام مرات، وإلى السلطان خوارزم شاه، ورأى من الجاه والحرمة ما لم يره أحد .

وكان تامّ المرودة، كبير النفس، ليس للمال عنده قَدْرٌ، حصل له ألوفٌ

(١) يقول ياقوت الحموي : سُهرورْد بلدة قريبة من زنجان بالجبال، خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء، منهم . . وشهاب الدين السهروردي، قدم بغداد وتقدّم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله، حتى جعله مقدماً على شيوخ بغداد وأرسله في الرسائل المعظمة، وصنّف كتاباً سمّاه عوارف المعارف (معجم البلدان ٣/٢٩٠).

كثيرة فلم يدخر شيئاً، ومات ولم يخلف كفنأ. وكان مليح الخلق والخلق، متواضعاً، صنّف في التصوف كتاباً شرح فيه أحوال القوم. . وكان شيخ العراق في وقته^(١).

ويعدُّ (عوارف المعارف) من أفضل الكتب التي وضعت بالعربية كي توضح المفاهيم الخاصة بالطرق الصوفية وتشرح مصطلحات التصوف وترسي معانيه على قاعدة راسخة من الكتاب والسنة، بعيداً عن تهويل الجهال وتهوين المعترضين. وللشهروردي شعرٌ ذوقيّ رقيقٌ، منه قوله:

وَقَائِلَةٌ لِي نِمْتُ لَيْلَةً وَصَلِينَا فَقُلْتُ لَهَا لَا عِلْمَ لِي بِرَضَاكَ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَيْلَةُ الرَّضَى سَهَرْتُ اللَّيَالِي كُلَّهَا لِلِقَاكَ
عَسَى لَيْلَةٌ أُخْرَى تَمُرُّ بِحَيَاتِنَا وَيَهْجَعُ قَلْبِي مِنْ أَلِيمِ جَفَاكَ^(٢)

ويهمُّنا هنا علاقة الشهروردي بالإمام الجيلاني، وهي علاقة كانت على قصر مدتها، عميقة الأثر في نفس الشهروردي. ولم تكن تلك العلاقة مباشرة، أعني أن الشهروردي لم يكن من مريدي الجيلاني الملازمين له، وإنما كان يتردّد عليه بصحبة عمه أبي النجيب الشهروردي - الذي كان شديد الحب للجيلاني - فكان يحضر معه مجلس الإمام وينهل من علومه وأذواقه.

ويُروى أن الشهروردي حضر المجلس الذي قال فيه الإمام (قدمي هذه. .) لكنه كان صغيراً جاء بصحبة عمه. . لكنه عاد بعد سنوات، وجرت بينه وبين الإمام واقعةٌ، لولاها، ما كان الشهروردي قد وصل إلى ما وصل إليه من علو الشأن. يحكي شهاب الدين هذه الواقعة فيقول:

اشتغلتُ وأنا شابٌ بعلم الكلام، وحفظتُ فيه كتباً وصرت فيه فقيهاً؛ وكان عمي (أبو النجيب) يزجرني عنه، ولا أزدجر. فأتى يوماً وأنا معه إلى

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، المجلد الثاني والعشرون، من ص ٣٧٣ إلى ٣٧٧.

(٢) البتادفي: قلائد الجواهر ص ١٤٠.

زيارة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، فقال لي: يا عمر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ (١) وها نحن داخلون على رجلٍ يخبر قلبه عن الله عزَّ وجلَّ، فانظر كيف تكون بين يديه لننال بركات رؤيته. فلما جلسنا إليه قال له عمي: يا سيدي، هذا ابن أخي عمر، مشغولٌ بعلم الكلام، وقد نهيته فلم ينته. فقال لي الشيخ عبد القادر: يا عمر، أيُّ كتابٍ حفظت فيه؟ فقلتُ الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني.. فمرَّ بيده على صدري، فوالله ما نزعها وأنا أحفظ من تلك الكتب لفظَةً، وأنساني الله جميع مسائلها، ولكن وقرَّ الله تعالى في صدري العلم اللدني.. وقال لي:

يَا عُمَرُ، أَنْتَ أَخِرُ الْمَشْهُورِينَ بِالْعِرَاقِ (٢).

(١) سورة المجادلة، آية ١٢.

(٢) بهجة الأسرار ص ٣٢.

مرتبة الولاية والقُطبية

بدو الشأن:

بدأت أعلام الإمام الجيلاني ترتفع في سماوات الولاية، مع توليه مدرسة شيخه أبي سعيد المخرمي؛ وكان ابتداء ارتقائه المنبر (قبل الظهر من يوم الثلاثاء، السادس عشر من شوال سنة ٥٢١ هجرية) وله آنذاك من العمر، قرابة الخمسين سنة^(١). ويؤرخ الإمام الجيلاني - بحسب رواية المترجمين له - لبدء اشتهاؤه أمره، فيقول: «نُوديتُ في سِرِّي: يا عبد القادر، أُدخل بغداد وتكلّم على الناس. فدخلت بغداد، فرأيت الناس على حالةٍ لم تعجبني، فخرجت من بينهم. فنوديتُ ثانية: يا عبد القادر، أُدخل وتكلّم على الناس، فإن لهم بك منفعة. فقلتُ: ما لي وللناس، عليّ بسلامة ديني. فقيل لي: ارجع، ولك سلامة دينك^(٢). . . ورأيتُ رسول الله ﷺ فقال لي: يا بني، لِمَ لا تتكلّم؟ فقلت: يا أبتاه، أنا رجلٌ أعجميٌّ، كيف أتكلّم على فصحاء بغداد. . . قال لي: تكلّم وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. فصليتُ

(١) بهجة الأسرار ص ٩٠ - فوات الوفيات ٤/٢ - الكامل في التاريخ ٩٤/٩ - قلائد الجواهر ص ١٦ . . وانظر أيضاً: Encyclopedia of Islam Vol. I p.170.

(٢) التادفي: قلائد الجواهر ص ١٦.

الظهر، وحضرني خلقٌ كثيرٌ. . فقلت^(١):

عَوَاصُ الْفِكْرِ يَغُوصُ فِي بَحْرِ الْقَلْبِ عَلَى دُرِّ الْمَعَارِفِ،
فَيَسْتَخْرِجُهَا إِلَى سَاحِلِ الصَّدْرِ، فَيُنَادِي عَلَيْهَا سِمْسَانُ
تُرْجَمَانِ اللِّسَانِ، فَتُسْتَرَى بِنَفَائِسِ أُمَانَ حُسْنِ الطَّاعَةِ
فِي بُيُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ.

ثم أنشد:

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَيَحْلُو لَهُ مُرُّ الْمَنَايَا وَيَعْدُبُ^(٢).

وانتظم مجلس الإمام، فكان يجتمع عنده أفرادٌ من الناس أول الأمر؛ ثم طارت شهرة باز الله الأشهب في الآفاق، فراح الناس ينسلون لمجلسه من كل حذب وصوب، فيستمعون إلى كلامه الذي ما ثناه قط، ولا كرّره، ولا نطق به إلا بالفتح. . بل، على حدّ قوله:

كَانَ الْكَلَامُ يَزْدَجِمُ عَلَى قَلْبِي، فَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ، أَكَادُ
أُحْتَنِقُ^(٣).

واقضى الأمر توسعة المدرسة، فكان البنّاؤون يتبرعون بجهدهم، والأغنياء بمالهم، حتى صارت المدرسة كافية لطلبة العلم^(٤). ولم تكن المدرسة هي المحل الوحيد لدروس الإمام، وإنما كان يخصّص لها صباح الجمعة ومساء الثلاثاء، ثم يلقي درس الأحد بالرباط الصوفي المجاور لها^(٥). - وقد سُميت قبة الرباط بقبة (الأولياء) لكثرة من كانوا يترددون على الإمام من

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٢٥.

(٢) كان الإمام الجيلاني دائم التردد لهذا البيت. . ويلي هنا، ترمز إلى جمال الذات الإلهية.

(٣) الياضي: خلاصة المفاخر، ورقة ٨١ أ.

(٤) كانت المدرسة قبل تولية الجيلاني لها تُعرف بمدرسة المخرمي، وكانت تقع بالقرب من أحد أبواب بغداد (باب الأزج). . وهي تُعرف اليوم باسم (الحضرة الجيلانية) ويُعرف الباب بباب (الشيخ) نسبةً إليه.

(٥) جُمعت مجالس الإمام في عدة كتب؛ انظر الفصل التالي.

أهل الله^(١) - ويبالغ الرواة الذين استشهد بهم الشطنوفي والتادفي، حين يقولون إن عدد الحاضرين مجلس الإمام، كان يصل إلى (سبعين ألفاً) ومهما يكن من أمر هذه المبالغة، فإنها تفيد أن عدداً كبيراً كان يحضر المجلس.

وفي هذه المرحلة، يبدو لنا الإمام وقد تزيّياً برداء الولاية. وهو رداء الكاملين من الصوفية، الذين عبروا مراحل التلقي ولوم النفس، إلى مراتب الإلقاء وصون الأنفاس. ولنتأمل رداء الولاية، من خلال وصف الخضر الموصلي الذي يقول: «خدمتُ سيدي عبد القادر ثلاث عشرة سنة، فما رأيته فيها يتمخّط ولا يتنخّم، ولا قعدتُ عليه ذبابة^(٢)؛ ولا قام لأحدٍ من العظماء، ولا ألمّ بيباب ذي سلطان. . وكان يسرى الجلوس على بساط الملوك ومَنْ يليهم، من العقوبات المعجلة»^(٣) وسألوه مرة: على ماذا بنيت أمرك؟ قال: على الصدق.

وظل الإمام يترقى في مراتب الولاية، حتى وصل إلى القطبية. . وهي مرتبة من أعلى المراتب التي يمكن أن يصل إليها السالكون إلى الله، وفيها تكون الرياسة للقطب على سائر الأولياء. وذات مرة، كان الإمام على منبر الرباط، فقال:

قَدَمِي هَذِهِ عَلَى رَقَبَةِ كُلِّ وَلِيٍّ لِلَّهِ.

وطاطاً كل الأولياء الحاضرين - وقيل غير الحاضرين - رؤوسهم تصديقاً واعترافاً بهذه العبارة التي ما تفوّه بها خلال تاريخ التصوف كلّها، غير الإمام الجيلاني! وظلت هذه العبارة مرتبطة بالإمام، حتى أننا نجد العديد من المؤرخين يشيرون إليه بقولهم: الشيخ عبد القادر القائل قدمي هذه. . الخ.

(١) التادفي: فلائد الجواهر ص ٧٣.

(٢) سئل الإمام: لماذا لا يقع الذباب على ثيابك؟ فقال: ما عندي شيء من دُبس (حلو) الدنيا، ولا غسل الأجرة!

(٣) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٨٦.

وقد كانت - أيضاً - باعثاً حذا بالشطنوفي إلى تأليف أشهر ترجمات الإمام (كتاب بهجة الأسرار) حيث ابتدأ بقوله: «... وبعدُ فإني كنتُ سُئلتُ أن أجمع ما وقع لي في قول شيخنا. . قدمي هذه على رقبة كل وليِّ الله، إذ هي يتيمة عقد الزمان، وفريدة سلك البيان، ومنزلة عزِّ انفراد بها قائلها. فاستخرتُ الله تعالى وأجبتُ السائل. . وسميته: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار» ثم راح الشطنوفي بعد ذلك يسرد تفاصيل المجلس الذي قيلت فيه العبارة، والأولياء الحاضرين الذين سلموا للإمام بالقبطية عليهم؛ كما أفرد فصلاً للذين حنوا رؤوسهم عند سماعها (في شتى بقاع الأرض!). . وأياً ما كان، فالمراد بالعبارة: إثباتُ علو مقام الإمام على سائر الأولياء، وحلوله بالمرتبة التي ستُعرف عند ابن عربي وعبد الكريم الجيلي - وغيرهما - بمرتبة: الإنسان الكامل.

المهم؛ أن الإمام ظلَّ يدعو إلى الله قرابة أربعين سنة، في وقتٍ غرقت فيه البلاد ببحر الغواية والبعث عن الهداية. ولقد ظلَّ أهل العراق يتلقون زخات وعظه الملتهبة، وهو على منبر التمكين ببغداد، ففضَّ مضجع سُبَاتهم الدنيوي، وفتحَ عيونهم الوَسنى على حقائق التوحيد ودقائق العلم ورقائق التجريد والتفريد، منتشلاً إياهم من نهر الهوس، ليحطَّ مراكبهم على شطِّ محيط الهدى. . فأسلم على يديه خَلقٌ كثير من أهل الديانات، وتاب ببركته ألوف المسلمين.

إحياء الدين:

تعرَّضت المصادر التاريخية لحركة الإحياء التي قام بها الإمام في عصره، ورُويت العديد من وقائع هذه الحركة التي كانت (التوبة) من أبرز ملامحها. فقد فتح باب التوبة على مصراعيه أمام الخلق؛ وكان يفرح بتوبة الشباب، فإذا تقدَّم له أحدهم ليتوب قال له:

«يَا هَذَا، مَا قُمْتَ حَتَّى أَقَامُوكَ، وَلَا أَقْبَلْتَ حَتَّى قَبَلُوكَ،
وَلَا جِئْتَ حَتَّى طَلَبُوكَ...».

ويظل يؤنسه برقيق الكلام كي تطمئن روحه، لما في التوبة المبكرة من
خيرٍ وصحة بداية . . . وإذا جاءه شيخٌ ليتوب، اشتدَّ في الخطاب قائلاً له:
«أَخْطَأْتُ وَأَبْطَأْتُ وَأَسَأْتُ وَأَنْسَأْتُ، كُلَّمَا فَسَحْنَا لَكَ
الْمَهْلَ، أَطَلْتَ الْأَمَلَ وَأَسَأْتَ الْعَمَلَ. كُلَّمَا كَبُرَ سِنُّكَ، تَمَرَّدَ
جَنُّكَ. هَجَرْتَنَا فِي الصَّبَا وَعَدَرْتَنَا، وَبَارَزْتَنَا فِي الشَّبَابِ
وَأَمْهَلْتَنَا، فَلَمَّا قَاطَعْتَنَا فِي الْمَشِيبِ مَقَّتْنَاكَ؛ أَفْبِحْ مَنْظَرَ
يُرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ذُو شَيْبَةٍ بِيضَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ
سَوْدَاءُ»^(١).

أما إذا أحسَّ بأن أحد الحاضرين يوشك أن يفارق مجلسه وهو ناقص
توبة أو ناقص إيمان، فإنه يتندره قائلاً:

«يَا هَذَا، كَمْ نَادَيْتَكَ وَمَا أَجَبْتِ، وَكَمْ اسْتَعْجَلْنَاكَ وَمَا
عَجَلْتِ، وَكَمْ وَبَحْنَاكَ وَمَا حَجَلْتِ، وَكَمْ كَاشَفْنَاكَ وَأَنْتِ
تَعْلَمُ إِنَّا نَرَاكَ.. فَكَيْفَ بِكَ إِنْ رَدَدْنَاكَ وَمَا أَرَدْنَاكَ؛ عَجِباً
لِمَنْ يَدْعِي حُبَّنَا، كَيْفَ لَا يَسْمَعُ بِكُلِّهِ. يَا هَذَا، لَيْتَكَ لَمْ
تُخْلَقْ، وَإِذَا خُلِقْتَ عَلِمْتَ لِمَاذَا خُلِقْتَ. يَا نَائِمًا، أَنْتَبِهْ. يَا
رَائِلًا، يَا رَاحِلًا، يَا مُنْتَقِلًا؛ تَزَوَّدْ وَهَيِّئْ سَفَرَتَكَ.. سَافِرًا
أَلْفَ عَامٍ، لِنَسْمَعُ مِنِّْي كَلِمَةً وَاحِدَةً»^(٢).

ونظر الإمام إلى (التوبة) على أنها: فرض عينٍ في حق كل إنسان، فلا
يوجد أحدٌ إلا وهو مفتقرٌ إلى التوبة، مهما كان حاله أو مقامه عالياً^(٣) . .
ولذا؛ فمن عجائب ما يُروى من كرامات الإمام، أن الشيخ صدقة البغدادي

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٩١.

(٢) بهجة الأسرار ص ٩٢ - قلائد الجواهر ص ٧٥.

(٣) راجع الفصل الخاص بالتوبة في بحثنا: الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر.

سمعه يقول: جاء لي مرید من بيت المقدس إلى هنا في خطوة، وتاب على يدي! فقال الشيخ صدقة في نفسه: مَنْ تكون خطوته من بيت المقدس إلى بغداد، فمّم يتوب، وما احتياجه إلى الشيخ؟ فالتفت الجيلاني إلى جهته وقال: «يا هذا، يتوب من الخطو في الهواء فلا يرجع إليه، ويحتاج أن أعلمه الطريق إلى محبة الله عز وجل». . ثم انطلق الإمام قائلاً بلسان القطبية:

أَنَا سَيْفِي مَشْهُورٌ، وَقَوْسِي مَوْتُورٌ، وَنِبَالِي مُفَوَّقَةٌ،
 وَسِهَامِي صَائِبَةٌ، وَرُمَحِي مُصَوَّبٌ، وَقَرْسِي مُسْرَجٌ. أَنَا
 نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ، أَنَا سَلَابُ الْأَحْوَالِ، أَنَا بَحْرُ بِلَا
 سَاحِلٍ، أَنَا دَلِيلُ الْوَقْتِ، أَنَا الْمُتَكَلِّمُ فِي غَيْرِي، أَنَا
 الْمَحْفُوظُ، أَنَا الْمَلْحُوظُ، أَنَا الْمَحْفُوظُ: يَا صَوَامُ، يَا
 قَوَامُ.. أَقْبِلُوا إِلَيَّ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، أَنَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.
 يَا بَنِيَّاتِ الطَّرِيقِ، يَا رِجَالَ، يَا أَبْطَالَ، يَا أَطْفَالَ: هَلُمُّوا
 وَخَذُوا عَنِ الْبَحْرِ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ^(١).

وقد اغترف معاصرو الإمام من بحر علمه اللدني الذي لا ساحل له، وأثمر ذلك رجوعاً إلى حظيرة الإسلام، ودخولاً في دين التوحيد. فلقد تمخضت حركة الإحياء التي قام بها الإمام عن توبة المسلمين، وعن إيمان غير المسلمين بالإسلام، كما ذكر المستشرق براون في مقاله عن عبد القادر الجيلاني^(٢). وقد تفاوتت تقديرات المؤرخين المسلمين، فرُوي في (الفتح) أن خمسمائة نفس أسلموا على يديه، وتاب أكثر من عشرين ألفاً^(٣). وزاد ابن العماد فقال: تاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم معظم اليهود والنصارى^(٤). . وأكثر التقديرات تواضعاً، هو ما ورد في (البهجة) بإسناد

(١) بهجة الأسرار ص ٢١.

(٢) Brawen: Art (Djilani) in; The Encyclopedia of Islam I, 170.

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني ص ١١٥.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٩٩/٤.

متصل، عن الإمام، أنه قال:

أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِّي مَنَفَعَةَ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ أَسْلَمَ عَلَيَّ
يَدَيَّ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَتَابَ
أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ.. وَهَذَا حَيَّرُ كَثِيرًا^(١).

ومن هنا نفهم تلك الإشارة الإلهية للإمام، التي دعت له لدخول بغداد والخروج من الجذبة الروحية التي عاينها، كي يجذب الخلق إلى الخالق.

وإذا كانت حركة إحياء الدين قد تضمنت بعث الإمام للفقهاء الحنبلية في ثوبٍ ذوقياً يمتزج بروح التصوف، على نحو ما نجده في كتابه (الغنية لطالبي طريق الحق) إلا أنني أعتقد أن المظهر الأتم لإحياء الدين، كان خلال تلك المجالس التي داوم عليها الإمام أربعين سنة بلا انقطاع - اللهم إلا في المرة التي ذهب فيها للحج - ولم يشغله شيء عن مجلسه الداعي إلى الله. ويروى أنه كان يلقي درسه ذات مرة في الهواء الطلق، فأمطرت السماء. وتشاغل الناس بالمطر؛ فرفع الإمام رأسه للسماء وقال:

«أَنَا أَجْمَعُ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ تُفَرِّقُ عَلَيَّ».

فسكن المطر^(٢).

الكرامات:

يعدُّ موضوع الكرامات من أكثر موضوعات التصوف تشويقاً، وأشدّها إثارةً للفتنة والجدل بين المؤيدين لها والمعارضين. وبعض أهل العلم ينكر الكرامات أصلاً، وينظر إليها كأنها حديث خرافة، وهذا الفريق يضم المعتزلة وبعض الفقهاء ومعظم الدارسين المحدثين، ويضم أيضاً (الخوانساري) الذي تعرّض لهذا الموضوع عند ترجمته للجيلاني في (روضات الجنات) فقال: إن

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٩٦.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥.

العامّة فتحوا له في سوق التصنّع والمخادعة دكاناً فوق كل دكان، ونسبوا إليه خوارق عادات عجيبات. . لا يصدّقها إلا مَنْ كان من جُملة البُلْداء، ولا يخفى على المسلم العاقل أن مقولة الكرامات، إما حماقةٌ أو جنونٌ^(١).

أما مؤيدو الكرامات، فلا يقع عددهم تحت حصرٍ. . وقد اهتم بعض أولئك المؤيدين بوضع مؤلفات مستقلة في إثبات الكرامة للأولياء، واستند إبتاتهم إلى دلائل نقلية وعقلية. فمن النقل، ما ورد في الآيات القرآنية من خوارق عادات أهل الله - ممّن لم تُعرف نبوتهم - كمریم التي تساقط عليها الرطب في غير أوانه، ووزير سليمان (أصف بن برخيا) الذي أتى بعرش بلقيس في طرفة عين، والخضر الذي راح يتصرّف في الوجود بأمر الله. ووردت كذلك أحاديثٌ نبويةٌ كثيرةٌ في هذا الباب، منها ذلك الحديث الذي يُنهي به (اليافعي) كلامه في إثبات الكرامات قائلاً: ولو لم يكن إلا حديث «رَبُّ أشعثَ أغبرٍ، لو أقسم على الله لأبره» لكفى ذلك دليلاً على جواز الكرامة^(٢).

ومن أدلة العقل على جواز الكرامة، كونها ليست بمستحيلة الوقوع مع قدرة الله، وكونها من جنس معجزات الأنبياء التي يقبلها منكرو الكرامات. وقد قام (النبهاني) بجمع الشبهات العقلية في رفض الكرامات، وتعبّرها واحدةً تلو الأخرى بحُجج مطولة يلزم عنها - عقلاً - القول بإثبات الكرامة للأولياء، وبأن كل ما كان معجزةً لنبيٍّ يجوز أن يكون كرامةً لوليٍّ. . إذ الفرق في الدرجة وليس النوع.

ويأتي شيخ الإسلام، تقيّ الدين بن تيمية، ليفصل القول الشرعي في هذه القضية، جامعاً بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء في أمرٍ واحدٍ هو (خَرَقُ العادة) الذي يقع في باب العلم أو باب القدرة، وكلا البابين ثابتٌ

(١) الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات (طهران) ٨٥/٥.

(٢) النبّهاني: جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية، ١٣٢٩ هـ) ٧/١ وما بعدها.

وجائزٌ عند هذا الشيخ السلفي العظيم الذي لم يفته أن يستشهد في رسالته بعبارة (الجوزجاني) الصوفية الشهيرة: كُن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك مُنجبلةٌ على طلب الاستقامة وربُّك يطلب منك الاستقامة^(١). . . وهكذا بدا ابن تيمية من المؤكدين جواز وقوع الكرامات، حتى أن ناشر رسالته انزعج كثيراً^(٢).

أما عن كرامات الإمام الجيلاني، فقد تكاثرت وانتقلت روايتها بعدة طرق - منها الإسناد المُعَنَّعُ المتصل - وتواترت حتى قيل (ما نُقلت الكرامات عن أحدٍ بالتواتر، إلا عن الشيخ عبد القادر. . .) وهي عبارةٌ شهيرةٌ تُنسبُ أحياناً لليُونيني وأحياناً للعز بن عبد السلام، وأحياناً لغيرهما^(٣).

وقد امتلأت كتب التراجم بأخبار كرامات الجيلاني، ووضعت في ذلك عدة مؤلفات مستقلة، ابتدأت كراماته - كما مرَّ علينا - منذ يوم مولده، حين كان يرضع في نهار رمضان^(٤). ولم يقتصر ذكر كرامات الإمام على الصوفية وحدهم، أو على مؤلفي ترجماته فحسب؛ بل نجد ذلك أيضاً في مؤلفات أعلام الإسلام، ممَّن ليس لهم اهتمامٌ بتوطئة مذهب الصوفية، كالدميري في حياة الحيوان^(٥)، والذهبي في العبر وسير أعلام النبلاء^(٦).

(١) ابن تيمية: رسالة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات (مكتبة الصحابة) ص ١٧.

(٢) انظر التعليقات السخيفة التي ذُبل بها ناشر الرسالة السابقة هوامش الصفحات، منتقداً ابن تيمية: صفحات ١١، ١٨، ٣٧، ٣٨.

(٣) راجع في ذلك: فوات الوفيات ٥/٢ - شذرات الذهب ١٩٩/٤ - ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأولاده (مخطوط دار الكتب المصرية) ورقة ٣ ب.

ويعقب النهياني على ما أورده من كرامات الجيلاني بقوله: وكراماته رضي الله عنه كثيرةٌ جداً، قد ثبتت بالتواتر، وتناقلتها الأمة عن الأئمة، وألفت فيها الكتب الكبيرة الكثيرة. . . (جامع كرامات الأولياء ٩١/٢).

(٤) راجع هذه الحكاية فيما سبق، وانظر أيضاً: بهجة الأسرار ص ٣٥ - قلائد الجواهر ص ٣ - خلاصة المفاهر ورقة ٨٠ ب.

(٥) الدميري: حياة الحيوان ص ٣٠٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤٤٨/٢٠.

ولن نزيد هنا من سرد كرامات الجيلاني، فيكفي ما ذكرناه في ثنايا الكتاب، مع الإشارة إلى (مئات) الكرامات التي توجد - لمن أراد مطالعتها - بالبهجة والقلائد والمفاخر. . وغير ذلك من ترجمات الإمام.

وكان الجيلاني يرى أن:

«كَرَامَةُ الْوَلِيِّ اسْتِقَامَةٌ فَعَلَّ عَلَى قَانُونِ النَّبِيِّ ﷺ؛
فَالْتَحَدَّثُ بِسِرِّ الْوَلَايَةِ نَقْصٌ، وَالتَّرْصُدُ لِنَسِيمِهَا كَرَامَةٌ.
وَالْكَرَامَةُ أَتْرُ أَنْعَكَاسِ نُورِ الْحَقِّ عَلَى قَلْبِ الْوَلِيِّ مِنْ
مَنْبَعِ ضَوْءِ النُّورِ الْكَلْبِيِّ بِوَاسِطَةِ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ، وَلَا
يُظْهِرُ ذَلِكَ عَلَى الْوَلِيِّ إِلَّا مَعَ غَدَمِ اخْتِيَارِهِ» (١).

ثم يؤكد الإمام ضرورة صرف النظر عن مسألة الكرامة بقوله:

«لَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ الصَّادِقِ أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْ قَصْدِهِ بِوُجُودِ
كَرَامَةٍ، فَلَا يَقِفُ مَعَهَا وَيَرْضَى بِهَا عَنِ اللَّهِ عَوْضًا، إِذْ هِيَ
جِبَابُهُ عَنْ رَبِّهِ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ عَزُّ وَجَلُّ، فَإِذَا حَصَلَ
الْوُضُوءُ لَا تَضُرُّهُ الْكَرَامَاتُ.. وَتَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَلَا
يُظْهِرُهَا لِأَحَدٍ مِنَ الْعَوَامِ، إِلَّا أَنْ يَغْلُبَ عَلَيْهِ ظُهُورُهَا؛
لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ الْوَلَايَةِ كِتْمَانَ الْكَرَامَاتِ، وَمِنْ شَرْطِ النَّبُوءَةِ
وَالرَّسَالَةِ إِظْهَارَ الْمُعْجَزَاتِ، لِيَقَعَ بِذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبُوءَةِ
وَالْوَلَايَةِ» (٢).

وقد نقلنا هذين النصين بتمامهما، لما يوضحانه من مُجمل رأي الإمام في مسألة الكرامة وخرق العادة، وهو الرأي الذي يطابق - تقريباً - ما قرره كبار

(١) الشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٣٩.

(٢) الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ص ١٢٧٨.

الصوفية، أمثال: الغزالي^(١) وابن عربي^(٢) وابن عطاء الله^(٣) والبريفكاني^(٤) واليافعي^(٥) والنبهاني^(٦) . . وغيرهم .

وبحسب الرأي العام السابق؛ فإن الكرامات المنسوبة للإمام لم تكن بسعيه إليها، وإنما هي محض إظهار لتأييد الله له بالولاية . . ولقد أظهر الله ولاية الإمام أيضاً، فيما وفقه تعالى إليه من فتاوى، تشهد كلها بغزارة علمه اللدني .

الفتاوى:

كما تصدر الإمام الجيلاني - إبان ولايته - للدعوة لدين الله وتربية المريدين وإصلاح حال أهل الزمان، تصدر أيضاً للإفتاء^(٧)، فكان يُفتي على المذهبين الحنبلي والشافعي، وكانت فتاويه مزجاً بين علم الظاهر وبين فقه القلوب؛ ولطالما حُملت فتاوى الإمام إلى الفقهاء، فأعجبوا بها أشد الإعجاب . . ولنا هنا وقفة مع ثلاثٍ من الفتاوى الجيلانية التي انطلقت من مكنن دقيق العلم ورقيق الذوق:

أولاً: حُملت إلى الإمام الجيلاني فتوى عن رجلٍ حلف بالطلاق ثلاثاً أن يعبد الله عبادةً لم يسبقه أحدٌ إليها . . فأفتى بأن يذهب الرجل إلى مكة،

(١) إحياء علوم الدين، المجلد الرابع، ص ٤٣٦ .

(٢) الفتوحات المكية، السفر الثالث، ص ٤٢٠ .

(٣) الحكم العطائية ص ١٧٩ .

(٤) تلخيص الحكم ص ٣٠١ .

(٥) نشر المحاسن الغالية ص ٤٤ .

(٦) جامع كرامات الأولياء، الجزء الأول ص ٢١ .

(٧) يقول الشيخ عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني، إن والده تصدر للكلام على الناس مُلّة أربعين سنة، من ٥٢١ حتى وفاته ٥٦١، أما التدريس والإفتاء فقد تصدر له من سنة ٥٢٨، فكانت مُدته ثلاثاً وثلاثين سنة .

ويُخلى له حول الكعبة فيطوف وحده! فكان الأمر كما أفتى الإمام، ولم يقع طلاق الرجل^(١).

ثانياً: جاء إليه رجلٌ ثريٌّ من التجار ومعه قدرٌ من المال، وسأله عمَّن يجب أن يُعطى له هذا المال، إذ أن الرجل لا يرى مستحقاً له.. فقال الإمام للرجل: أعطه لمن يستحقُّ ومن لا يستحقُّ، يُعطك الله ما تستحقُّ وما لا تستحقُّ^(٢).

ثالثاً: قيل للإمام إن أحد المريدين يدَّعي أنه يرى الله عز وجل، فأرسل إليه وعنفه ونهاه عن ذلك القول.. ولما سُئل عن حقيقة قول هذا المريِد، وهل هو محقٌّ أم مبطلٌ؟ قال:

هُوَ مُحِقٌّ مُلَبَّسٌ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ شَهِدَ بِبَصِيرَتِهِ نُورَ
الْجَمَالِ، ثُمَّ خُرِقَ مِنْ بَصِيرَتِهِ إِلَى بَصَرِهِ مَنْقُذٌ، فَرَأَى
بَصْرَهُ بِبَصِيرَتِهِ مُتَّصِلَ شُعَاعِهَا بِنُورِ شُهُودِهِ، فَظَنَّ أَنَّ
بَصْرَهُ رَأَى مَا شَاهَدَتْهُ بِبَصِيرَتِهِ. وَإِنَّمَا رَأَى بَصْرَهُ
بَبَصِيرَتِهِ فَحَسَبُ، وَهُوَ لَا يَدْرِي^(٣).

وخلال هذه الفتاوى الثلاث المختارة من جملة ما أفتى به الإمام، تظهر حقائق معارفه التي جمعت بين وعي العقل وهدى القلب.. فالفتوى الأولى هي محض إفتاءٍ فقهيةٍ يستند إلى حكم الشرع الظاهر، مع التبصُّر بنور الفهم الرباني. فقد حيَّرت هذه المسألة الفقهاء آنذاك، وما دروا كيف يمكن لمسلم أن يعبد ربه عبادةً لم يسبقه إليها الأوائل مع فضلهم وكثرة تعبدتهم؟ وهنا أفتى الإمام بما أفتى به، مُسترشداً بنور الفهم الذي ورد في قوله تعالى:

(١) بهجة الأسرار ص ١١٨ - قلائد الجواهر ص ٤٩.

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٤.

(٣) المرجع السابق ص ١١٩.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(١).

أما الفتوى الثانية، فيظهر فيها الإمام الجيلاني العالم بالنفس العارف بالله. فهو لم يرد لهذا المتصدق أن تتولى نفسه تفقد أحوال الخلق، وتنصيب ذاته حكماً فيهم (مَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ) فهنا تشعر النفس الإنسانية بغلبة سلطانها، فتنسى المراد من الصدقة. فأراد الإمام أن يكف الرجل عن تحكيم نفسه في الناس، فالناس فيهم مَنْ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾^(٢). وأراد في الوقت ذاته أن يعرف الرجل بأن الله لا يعطي بقدر استحقاق الإنسان؛ فهو سبحانه يُربي الصدقات ويُعطي ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةً﴾^(٣).

والفتوى الثالثة الأخيرة، إعلامٌ بتدقيق الإمام وإبحاره في فيوضات المعرفة الربانية متحققاً برقيق المشاهدات. فهو لم يفزح ويزبد ويحوقل كواحدٍ من فقهاء القشور، وإنما أدرك هذا المرید الذي عثر في طريقه، وأخذ بيده شارحاً حقيقة حاله، لأن الإمام عين من مقام التمكين، ما عاينه هذا المرید وهو في التلويح. وهذا هو نفس الموقف الذي اتخذه الإمام من قضية الحلاج، تلك القضية التي قال الإمام بصدها: عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده^(٤).

(١) سورة الأنبياء، آية ٧٩.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٣.

(٣) سورة يونس، آية ٢٦.

(٤) انظر مقالة الإمام في (الحلاج) بديوان عبد القادر الجيلاني.

أسلوب الجيلاني ومؤلفاته وترجماته

إذا كانت اللغة - كما يقول ابن جني - هي أصواتٌ يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم^(١). . فإن للصوفية لغتهم الخاصة التي حاولوا بها التعبير عن الأغراض والمرامي الذوقية التي اقتصوا بها، وتعارفوا فيما بينهم على الدلالات الرحبية للفظ الواحد. هذا اللفظ الذي يكتسي عند دخوله كتابات القوم، بمفهوم مغاير لما درج الناس عليه، أعني: مفهوم اصطلاحي. وتشكل هذه الاصطلاحات الصوفية، الأبجدية العامة في لغة أهل الطريق، فهي أبجدية الإشارات والتلويحات المحتشدة في العبارات التي تكلموا بها، وفي الأثار المكتوبة التي بقيت بعدهم. ومن هنا كان اهتمام رجال التصوف ودارسيه بوضع المؤلفات المستقلة في معاني تلك المصطلحات، مما خلف في النهاية قدراً من هذه المؤلفات، أشهرها: اصطلاحات الصوفية لابن عربي، اصطلاحات الصوفية للقاشاني، معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن الشرقاوي، المعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم.

وقراءة التصوف لا تقتضي تعلم هذه الأبجدية فحسب، بل تقتضي

(١) ابن جني: الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار (الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة ١٩٨٦)، الجزء الأول، ص ٣٤.

أيضاً تدوفاً قلبياً لحقائق الطريق ودقائق الولاية، وتعرفاً على موضع إشارات اللفظ ودلالاته، وتجربةً فرديةً لمعاينة بعض لمحات الأنوار.. وإلاً، فالماء المالح والماء العذب - كما يقول الرومي - شبيهان في الصفاء؛ فليس يدري الفرق بينهما سوى صاحب ذوق^(١).

وهناك بعض السمات المميزة في كتابات كل واحدٍ من أقطاب الطريق الصوفي، ومن هذه السمات يتحدّد الأسلوب الخاص الذي يميّز كتاباته.. وحول تلك السمات والخصائص في مؤلفات الإمام الجيلاني، تدور السطور التالية.

أسلوب الإمام:

أول ما يستلفت النظر في مؤلفات الإمام الجيلاني، هو هذا التنوع والتباين في أسلوب الكتابة والتأليف، فهو إذا تعرض لبيان أقسام الشريعة وأركانها - كما فعل في الغنية - نراه يبسط القول ويتخير من الألفاظ أيسرها، متدرّجاً بذلك من الكلام عن العقائد إلى الكلام في العبادات والآداب ونوافل الأعمال، دون توغلٍ في المسائل الفقهية الخلافية. وهو يكثر في هذه الموضوعات من التضمين، فنجد الآيات القرآنية والآثار مبثوثة بين طيات العبارات، لتتنظم جميعاً في أسلوب واضحٍ مباشر.

أما الكتابات الصوفية للإمام، فهي على ضربين.. الأول: مجالس وعظه وكلامه للمريدين. والآخر: أشعاره ومقالاته الرمزية. وفي المجالس تبدو عدة خصائص أسلوبية، أهمها الاعتماد على اللفظ القوي المؤثر الذي لا يخلو من الإشارة والتلويح والتورية، وقد بدت هذه الخاصية في أول كلام للإمام، حين صعد للمرة الأولى على المنبر.. فارتج عليه في البداية - وهو

(١) جلال الدين الرومي: المثنوي، ترجمة الدكتور عبد السلام كفاي (المكتبة العصرية - بيروت)، المجلد الأول، ص ٢٧٦.

الرجل الأعجمي الذي جاء يتحدث إلى فصحاء بغداد - لكنه ما لبث أن انطلق بالفتح قائلاً:

عَوَاصُ الْفِكْرِ يَغُوصُ فِي بَحْرِ الْقَلْبِ ... الخ (١)

ومن السمات المميزة لأسلوب الإمام في هذه المجالس، توقفه في أحيان كثيرة أمام بعض آيات القرآن وألفاظ الحديث الشريف، متأولاً لمعانيها، حاملاً مرادها إلى أبعد المفاهيم. فمن ذلك ما نجده حين يتعرض لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..﴾ (٢) فيقول متأولاً ذلك على العارف الرباني:

الْخَلْقُ الْأَوَّلُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، وَهَذَا الْخَلْقُ
مُفْرَدٌ.. يُفْرَدُهُ عَنِ إِخْوَانِهِ وَأَبْنَاءِ جِنْسِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ،
يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ الْأَوَّلَ وَيُبَدِّلُهُ، يُصَيِّرُ سَافِلَهُ عَالِيَهُ.. فَيَصِيرُ
رَبَانِيًّا رُوحَانِيًّا، يَضِيقُ قَلْبُهُ عَنْ رُؤْيَةِ الْخَلْقِ (٣).

ولا تخلو مجالس الإمام من القصص الموحى وضرب الأمثال، لتقريب المعنى المراد للأذهان. كما كان كثير الإشارة إلى أقوال الصوفية السابقين عليه - خاصة رجال الطبقة الأولى - مستدلاً بهذه الأقوال على أحوال المتقين وسيرة المتقدمين من الزهاد.

وكان الإمام يكثر من إنشاد أبيات الشعر في كلامه، ليفصّل قولاً أو يوضح دقة معنى. ويروى عن أحد معاصريه، أنه أراد يوماً أن يحصي المرات التي ينشد فيها الإمام شعراً وهو على المنبر، فحضر المجلس ومعه خيط تحت ثيابه، فكان كلما استشهد الإمام أو أنشد أبياتاً، يعقد في الخيط عقدة

(١) بهجة الأسرار ص ٢٦ - خلاصة المفاهر، ورقة ٩٦ أ. . وانظر نص العبارة فيما سبق.

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٤.

(٣) الفتح الرباني، ص ٣٨.

- وهو في آخر الناس - حتى انشغل بذلك .. فإذا بالإمام يلتفت إليه قائلاً:
أَنَا أَجِلُّ وَأَنْتَ تُعَقِّدُ^(١).

وهناك بعض التعبيرات التي تتكرر كثيراً في النصوص الباقية من
مجالس الإمام الجيلاني، فمن ذلك قوله: يا غلام^(٢) .. ويحك .. يا قوم ..
الشجاعة صبر ساعة!

والمتمامل في عبارات الإمام، يدرك أنه كان يُحجم عن الدخول في
دقائق المعرفة ورقائق الولاية، ما دام كلامه للمريدين وأهل الابتداء. حتى أنه
في بعض الأحيان التي تفيض عنه بعض هذه الأنوار، لا يلبث أن يستدرك
على نفسه، فيقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ، وَأَنْتَ
تَعْلَمُ أَنِّي مَغْلُوبٌ^(٣) ..

ولا شك في أن إحجام الإمام عن الكلام في تلك الأمور، كان لخشيته
من افتتان العامة والمبتدئين، وعملاً بالمبدأ الصوفي الذي ذكره أبو عمرو
الدمشقي (المتوفى سنة ٣٢٠ هجرية) حين قال: كما فرض الله على الأنبياء
إظهار الآيات، فرض على الأولياء كتمان الأسرار^(٤).

وأخيراً، فقد كان كلام الإمام في هذه المجالس بغير ترتيب مسبق،
وبغير إعادة لموضوع، وهذا ما يقرره الإمام في قوله: ما ثنيتُ في كلامي
قط .. وما تكلمتُ إلا بالفتح^(٥). لكنه كان دوماً ما يبدأ المجلس بقوله

(١). بهجة الأسرار، ص ٩٤ - قلائد الجواهر ص ٨٣٩

(٢) كان الإمام الجيلاني يكرر هذه الكلمة في بداية كل فقرة من كلامه لمريديه، كما كان معاصره
الشيخ أحمد الرفاعي يبدأ فقرات كلامه لأهل مجلسه بقوله: أي سادة .. (انظر: البرهان
المؤيد من كلام الشيخ الرفاعي) وكان الشيخ عبد السلام الأسمر يبدأ مواعظه بقوله: يا
إخواني .. (انظر: الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر).

(٣) الجيلاني: الفتح الرباني ص ٢٣١.

(٤) السلمي: طبقات الصوفية ص ٦٥.

(٥) بهجة الأسرار ص ٩٢.

(الحمد لله رب العالمين) فيكررها ثلاث مرات، ويسكت عقب كل مرة لحظة. ثم يقول (عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته . .) ويُنهى كل مجلس بالآية الشريفة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١). . . وهي الآية التي كان النبي ﷺ ينهي بها مجلسه.

أما الشكل الآخر من التعبير الصوفي، أعني: الأشعار والمقالات الرمزية. فقد بلغ فيهما الإمام غاية التمكين في توجيه المصطلح الصوفي وإرساله إلى أبعد الدلالات، بل إنه كثيراً ما هجر المصطلح السابق عليه، وراح يرسم بالكلمات اصطلاحات جديدة لا نكاد نجد لها عند غيره من أهل الطريق . . وهذا ما نجده في (ديوان الجيلاني).

* * *

وفيما يخص مؤلفات الإمام الجيلاني، وما نسب إليه من آثار بعضها صحيح ومعظمها منحول، نقدم هذه القائمة التي استفدناها خلال سنوات بحثنا في تراث الإمام الجيلاني، والتي تعرفنا على بعضها مما ذكرته كتب المترجمين والمفهرسين . .

الغنية:

يعدُّ كتاب (الغنية لطالبي طريق الحق) أشهر آثار الإمام الجيلاني على الإطلاق، وهو واحد من المؤلفات التي توضع في مرتبة واحدة مع قوت القلوب للمكي وإحياء علوم الدين للغزالي؛ بعدّها من الكتابات التي عني فيها الأئمة بجمع المعارف الدينية في قالب موسوعي يغني عن الرجوع إلى الأسفار المطولة. يقول الإمام في سبب تأليف الكتاب إنه وضعه: إجابةً

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس أن أكثر دعاء النبي ﷺ كان: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، (انظر تخریج الحديث وفضل هذا الدعاء في: اللؤلؤ والمرجان ٣/٢٢٥) وهي الآية ٢٠١ من سورة البقرة.

لبعض الأصحاب الراغبين في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات، ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية.. ومعرفة أخلاق الصالحين^(١).

وقد حظيت (الغنية) بالاهتمام على مدى القرون الممتدة من وفاة مؤلفها حتى اليوم، وتوافرت نسخها الخطية وطبعاتها في كافة البلدان^(٢)، وتناولها المسلمون بأيدي العناية والنسخ والمطالعة. وقامت حولها بعض الأعمال، منها كتاب (نظم الغنية) للشيخ نور الدين البريفكاني الذي وضع عبارات الغنية في أبيات شعرية ليسهل حفظها^(٣)، ومنها ترجمة إلى التركية قام بها سليمان جلبي المعروف بكتابي، بعنوان (عمدة الصالحين في ترجمة غنية الطالبين للكيلاني الشهير بغوث الأعظم والمتخلص بمحيي الدين) وقد أصدرتها في جزئين سنة ١٣٠٤ هجرية، المطبعة العثمانية بإسطنبول^(٤).

وقد ظهرت مؤخراً طبعة محققة من الغنية - في ثلاثة مجلدات - قام بها فرج توفيق الوليد (الأستاذ المساعد بكلية الشريعة، جامعة بغداد) بعد مقابلة النص على سبعة أصول مخطوطة ومطبوعة، مع التعليق والتقديم والفهارس.

المجالس:

كان مجلس الإمام ينعقد ثلاث مرات في الأسبوع (في المدرسة بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد) وكان خلقٌ كثيرٌ يحضرون هذه المجالس، وكان منهم مَنْ يكتب ما يقوله.. ويبدو أن الشطنوفي والتادفي قد

(١) الجيلاني: الغنية (مقدمة الكتاب) ص ٤٨.

(٢) طبعت الغنية عدة مرات بمصر منذ سنة ١٢٨٨ هجرية، وطبعت أيضاً بالهند والعراق والسعودية.

(٣) البريفكاني: تلخيص الحكم (مقدمة التحقيق) ص ٦٥.

(٤) توجد منها نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ١٤٠، ١٩٢ تصوف تركي، طلعت.

بالغا حين ذكرا أن «أربعمائة عالم كانوا يكتبون ما يقول في مجلسه»^(١) أو أن ثمة تصحيحاً وقع في الخبر الذي نقلنا عنه .

عموماً، فقد جُمعت أقوال الإمام في مجالسه، ورتبها بعض تلاميذه ووضعوا لها العناوين المناسبة . . وهذه المجاميع هي :

١ - فتوح الغيب :

تشير الدلائل إلى أن هذا الكتاب - الذي يضم ٧٨ مقالة غير مؤرخة - هو أقدم مجموعة من مجالس الإمام، فقد وضع عليه ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية) شرحاً تحتفظ المكتبة الظاهرية بنسخة خطية منه - بخط المؤلف - وهي إحدى النسخ التي اعتمد عليها الدكتور محمد رشاد سالم في إخراج النص المحقق لهذا الشرح اللطيف الذي اقترب فيه ابن تيمية من مشارب أهل الذوق^(٢) .

وهناك العديد من النسخ الخطية من فتوح الغيب، ذكر بروكلمان أرقام بعضها في مكتبات ليزج وباريس وإسطنبول والقاهرة^(٣)، وأشارت المراجع الأخرى إلى نسخ لها بمكتبة الأوقاف العامة ومكتبة الحضرة القادرية ببغداد، وقد رأينا منه نسخة بعنوان (كتاب الجيلاني) محفوظة بالأزهر^(٤)؛ وهو مطبوع على هامش بهجة الأسرار وقلائد الجواهر، وله طبعات مستقلة توالي مكتبة الحلبي بالأزهر كلما نفذت . . وقد قامت هذه المكتبة بإلحاق جملة تمصائد بهذه الطبعات، نَسَبَتْها جميعاً للإمام الجيلاني، إحداها (قصيدة النادر العينية) لعبد الكريم الجيلي (ويبدو أن القائم على طبع الكتاب كان

(١) الشطنوفي : بهجة الأسرار ص ٩٥ .

التادفي : قلائد الجواهر ص ٢٢ .

(٢) ابن تيمية : شرح كلمات من فتوح الغيب (جامع الرسائل) ٧١/٢ .

(٣) Brockelman: Gieschichte der Arabischen Literature II p. 778 .

(٤) مخطوط مكتبة حلبيم بالأزهر، رقم ٩٠٢ خصوصية .

يعرف أن القصيدة ليست للإمام الجيلاني ، لأنه حذف منها الأبيات التي ترجم فيها عبد الكريم الجيلي لنفسه ذاكراً تاريخ مولده، وكتب في هامش الصفحة: بياض في الأصل^(١).

٢ - الفتح الرباني والفيض الرحماني:

وهو المجموع الثاني من مجالس الإمام الجيلاني، التي بدأت يوم الأحد الثالث من شوال سنة ٥٤٥، وانتهت في أول رجب سنة ٥٤٦ هجرية. وتشير بعض المصادر إلى أن جامع هذه المجالس هو (عفيف الدين بن المبارك) أحد خلفاء الإمام الجيلاني^(٢)، ويبدو أن هذا المبارك هو الذي أعطى للكتاب هذا الاسم الذوقي (الفتح الرباني) الذي توجد فيه عدة مؤلفات أخرى تحمل عنوانه، منها:

- الفتح الرباني والفيض الرحماني، للنابلسي^(٣).
- الفتح الرباني في حل ألفاظ الزنجاني، لشمس الدين الشريبي^(٤).
- الفتح الرباني لما ذهل فيه الزرقاني، لمحمد بن الحسين البتاني^(٥).

وقد حظي (فتح) الإمام الجيلاني هذا بعناية النساخ قديماً، وباهتمام المطابع في أيامنا. فقد ذكرت الفهارس عدة أصول خطية له في مكاتب العالم، منها نسخ بعنوان (الفتح الرباني والفيض الرحماني) وعنوان (فتوحات العارف الرباني) وعنوان (الفتح الرباني للإمام الصمداني) وعنوان (ملفوظ الشيخ الرباني) وعنوان (ملفوظ القادرية) وهذه العناوين جميعاً ذكرها بروكلمان لنسخ خطية في مكاتب دامادزادا، وسليم أغا، والأصفية،

(١) الجيلاني: فتوح الغيب (طبعة الحلبي) ص ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣.
(٢) السامرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني (مطبعة الأمة - بغداد) ص ١٦.
(٣) مخطوط الإسكندرية رقم ٣١٣٣ ج تصوف، وقد نشرته دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق محمد عبد القادر عطا.
(٤) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٢٤١ هـ، (رصيد عام).
(٥) مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٥٣٦٦ ب، (رصيد عام).

وينكيور^(١)، كما ذكر السامرائي نسخة منه بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد^(٢). وقد رأينا نسخة نفيسة من هذا الكتاب ببلدية الإسكندرية، مؤرخة بسنة ٦٤٧ هجرية^(٣).

أما طبعات هذا الكتاب فقد ابتدأت بها مطبعة الحلبي بمصر، ثم توالى طبعاتها بالأقطار الإسلامية. وقد اعتمدنا في هذا البحث على إحدى الطبعات غير المؤرخة التي أصدرتها مطبعة الحلبي، جاء على الورقة الأولى أنها: الطبعة الأخيرة!

٣ - جلاء الخاطر في الظاهر والباطن:

وهو المجموع الأخير الباقي من مجالس الإمام، يتدئ بالمجلس المنعقد يوم الجمعة التاسع من رجب، وينتهي بمجلس يوم الرابع والعشرين من رمضان سنة ٥٤٦ هجرية^(٤). فهو بذلك استكمالاً لما ورد في الفتح الرباني، خاصة أن الأسلوب والإطار العام واحد في كليهما. ولم يُطبع هذا الكتاب رغم وفرة نسخه الخطية، فبالإضافة إلى النسخ التي ذكرها بروكلمان^(٥)، توجد له نسخة جيدة بمكتبة السليمانية بإسطنبول، وأخرى بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد. كما توجد نسخة منه بمكتبة جامعة القاهرة (برقم ١٥٧٤١ / تصوف) وهي نسخة ناقصة من آخرها.

الأوراد والأحزاب:

هناك العديد من المعاني اللغوية لكلمتي (ورد - حزب) منها المعنى الذي ذكره ابن منظور والفيروزآبادي والزبيدي، والذي يحتمل اللفظين معاً، وهو: أن يجمع العابد قدراً معلوماً من سور القرآن - بحيث لا يكون فيها

(١) Gieschichte der Arabischen Literature II p.778.

(٢) السامرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني ص ١٦.

(٣) مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ٢١٦٤ ج تصوف.

(٤) مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٧٤١ تصوف، الورقة الثانية ب.

(٥) Gieschichte der Arabischen Literature II p.778.

سورة منقطعة - ثم يلتزم بقراءتها في اليوم واللييلة . . فيقال لذلك (قرأ الرجل وردهً وجزبه) بمعنى واحد^(١).

ويُطلق لفظا الحزب والورد أيضاً، على كل (ذكر) يُتلى بعد الحضرة في الزوايا والتكايا الصوفية، بشرط أن يكون هذا الذكر مؤلفاً من مختارات مطولة من سور القرآن . . كما يُطلق اللفظان على الأدعية التي يعدّها أقطاب التصوف لتلاوتها - إما بانتظام أو كلما دعت الحاجة - وإن كان هذا الاستخدام الأخير لم ينتشر إلا في نطاق ضيق، فهذه الأدعية لم تعرف بالأوراد والأحزاب إلا في القرن السادس الهجري - يقول ماك دونالد: وأول حزب معروف هو الحزب الذي وضعه عبد القادر الجيلاني، ثم وضعت بعد ذلك أحزاب كثيرة من تصنيف ابن عربي وأحمد البدوي والإمام النووي وغيرهم، وأشهر هذه الأحزاب جميعاً (حزب البحر) للشاذلي^(٢).

. . وهناك جملة أوراد وأحزاب منسوبة للإمام الجيلاني، يعتقد القادرية أنه كان يداوم على قراءتها، ومن ثم فهم يقتدون به في ذلك^(٣)؛ وهذه المأثورات هي:

١ - أوراد الأيام السبعة:

وهي أوراد قصار على عدد أيام الأسبوع، تبدأ بورود يوم الأحد . . وقد أشارت النسخ الخطية والمطبوعة من هذه الأوراد، إلى صحة نسبتها للإمام الجيلاني، وإلى أنها رويت برواية صحيحة الإسناد عن الشيخ الإمام مسلم الصيادي!

(١) انظر: لسان العرب، المجلد الأول، ص ٦٢١، المجلد الثالث، ص ٩٠٨ - القاموس المحيط، المجلد الأول، ص ٥٦، ٣٥٧ - التكملة والذيل والصلة، الجزء الأول، ص ١٧٤ والجزء الثاني ص ٣٣٢.

(٢) ماك دونالد: مادة حزب بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد السابع ص ٣٦٩.
(٣) اهتم متأخرو الصوفية بالأوراد اهتماماً بالغاً، وجعلوا لقراءتها وقتاً لا يجب أن ينشغل فيه المرید بأمر آخر، وإلا كان مؤثراً ما سوى الله عليه . . انظر: رسالة الشيخ قريب الله فيما يتعلق بالأوراد (جامع الأوراد) ص ١٨٩ وما بعدها.

ولا يوجد في هذه الأوراد ما يقطع بنسبتها للإمام الجيلاني، فهي محض أدعية ممزوجة بأسماء الله الحسنى في عبارة لطيفة لا تخرج عن الإطار العام لأسلوب الإمام. . هذا وإن كان (ورد يوم الجمعة) قد انفرد بنوع من الصياغة اللفظية التي يغلب عليها التكلف وهذا ما لم نره في بقية آثار الإمام. فمن ذلك:

اَللّٰهُمَّ اِنِّيْ اَسْأَلُكَ بِعَظِيْمٍ قَدِيْمٍ كَرِيْمٍ مَّكْتُوْنٍ مَّخْرُوْنٍ
اَسْمَائِكَ.. وَبِلَوَامِعِ بَوَارِقِ صَوَاعِقِ عَجِيْحٍ هَجِيْحٍ
رَهِيْحٍ بَهِيْحٍ نُورِ ذَاتِكَ، وَبِبَهْرِ قَهْرِ جَهْرِ مَيْمُوْنٍ اَرْتَبَاطِ
وَخَدَانِيَّتِكَ.. صَبَّ عَلَيْنَا مِنْ اَنْبَابِ مَيَازِيْبِ اَلتَّوْفِيْقِ..
وَاعْمِسْنَا فِيْ جِيَاضِ سَوَاقِيْ مَسَاقِيْ بَرٍّ بَرِّكَ
وَرَحْمَتِكَ.. الخ.

والحقيقة فإن هذه السمة الأسلوبية بعيدة تماماً عما نعرفه في كلام الإمام الجيلاني من سمات.

وهناك عدة مئات من النسخ الخطية لهذه الأوراد، أغلبها بيد القادرية في الشرق والغرب أما النص الذي ذكرناه هنا، فهو مأخوذ من أصلين لهذه الأوراد: أحدها مخطوط بالأزهر^(١)، والآخر مطبوع ضمن الفيوضات الربانية^(٢).

٢ - أوراد الأوقات الخمسة :

وهي أورادٌ تُتلى بعد كل صلاة مكتوبة في كل يومٍ مرةً، ويذكر القادرية لنسبتها للشيخ إسناداً متصلاً من طرق كثيرة. وأول هذه الأوراد يُقرأ عقب صلاة الصبح، ويسمى (حزب التضرع^(٣) والابتهال) وهو يبدأ بمجموعة من

(١) مخطوط الأزهر ضمن مجموعة بعنوان (أدل الخيرات) برقم ٨٠٥ خصوصي، ٣٤٣٠٨ عمومي، حلیم - ورقة ٣ ب.

(٢) الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) ذكر بروكلمان (Gieschichte der Ar. II p.778) عدة نسخ من هذا الحزب بمكتبات رامبور وآيا صوفيا، بعنوان: حزب النجاة والابتهال.

الآيات القرآنية وينتهي بأدعية وابتهالات، وتوجد بين أيدينا منه ثلاث نسخ: مخطوط الأزهر رقم ٨٠٥ خصوصية، حلیم - مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧، تصوف - طبعة الفيوضات الربانية ص ٩٨ وما بعدها (ويليه بقية الأوراد الخمسة) كما توجد له نسخ عديدة أشارت إليها الفهارس.

والورد الثاني يُقرأ بعد صلاة الظهر، ويسمى (حزب السُريانية) وهو يختلف في لغته عن الورد السابق، ويتضمن ألفاظاً مثل: سهسوب ذي العزة.. كهوب كهوب الذي سخر كل شيء! وهي ألفاظ سُريانية يفترض أنها تشير لأسرارٍ خاصة، مع أن الإمام لم يستخدمها في غير هذا الحزب، الذي نرجح أنه مَدسوسٌ عليه.. وهناك عدة نسخ من هذا الحزب موزعة بين المكتبات، منها نسخة بمكتبة مسجد المرسي بالإسكندرية (برقم ١٠٥٦ عام) والورد الذي يُقرأ بعد صلاة العصر، يعرف باسم (فتح البصائر) وهو توجهٌ ذوقِيٌّ لمعاني الفاتحة يبدأ بقوله: الحمد لله رب العالمين حمداً يفوق ويفضل حمد الحامدين.. الرحمن الرحيم الذي دحى الأقاليم واختص موسى الكليم وأحیی العظام وهي رميم.

أما الورد الذي يُقرأ بعد صلاة المغرب، فيسمى (حزب الفتحية) وأوله: يا مولاي يا قادر يا مولاي يا غافر يا لطيف يا خبير، سبحان الله، تعظيماً لأسمائه عدد المعلومات، والحمد لله، الكبير المتعال.. ولا إله إلا الله عدد المخلصين.. والله أكبر تكبيراً لجلالك، الخ.

وأخيراً يأتي (حزب التمجيد) الذي يُقرأ بعد صلاة العشاء، وهو لا يختلف في لغته واستهلاله كثيراً عن ورد صلاة المغرب.. وينتهي هذا الحزب بجملة أدعية وتوسلات.

٣ - ورد الصلاة الكبرى:

وهو واحدٌ من أطول الأوراد التي ضمتها (الفيوضات الربانية). يستدئ

بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١). . وقد وردت قطعاً من هذا الورد بمخطوطة جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧، تصوف، جاء فيها (اللهم اجعل أفضل صلواتك.. على سرك الأعظم وفيلسوف الملة الإسلامية.. محمد) ولا شك في أن هذه العبارة مدسوسة على الإمام الجيلاني، فقد عُرف عنه كراهيته للفلسفة في مواقف كثيرة، منها أن رجلاً دخل عليه ومعه كتاب يشتمل على شيء من الفلسفة وعلوم الروحانيات، فنهره الإمام الجيلاني قائلاً:

بِئْسَ الرَّفِيقِ كِتَابُكَ هَذَا^(٢).

وقد تفقدنا نص الورد الوارد في الفيوضات، فلم نجد هذه العبارة الغربية فيه. فالراجح أن بعض النساخ أقحمها على السياق ظناً منه بأن ذلك تكريم للنبي عليه الصلاة والسلام!

٤ - حزب الرجاء:

وهو واحدٌ من أشهر أوراد الإمام، توزعت نسخه الخطية والمطبوعة هنا وهناك. ويتميز هذا الحزب بتفاوتٍ كبيرٍ في كلماته بين سائر النسخ، كما يتميز باضطراب عنوانه! فنجد له نسخاً بعنوان (حزب الرجاء والابتهاج)^(٣) ويذكره بروكلمان بعنوان (حزب الرجاء والابتهاج)^(٤) والبغدادى بعنوان (حزب الرجاء والانتهاج)^(٥) والشيخ محمد المنلا بعنوان (حزب الرجاء والالتجاء)^(٦).

٥ - حزب الوسيلة:

وهو من أطول أوراد الإمام الجيلاني وأكثرها تداولاً بين القادرية، توجد

(١) سورة التوبة، آية ١٢٨.

(٢) بهجة الأسرار، ص ٤٨.

(٣) مخطوط جامعة القاهرة رقم ١٥٦٨٧ تصوف.

(٤) Gieschichte der Arabischen Literature II p.779.

(٥) هدية العارفين ١/٥٩٦.

(٦) سفينة القادرية ص ١٧.

له عدة ترجمات إلى التركية والفارسية بالإضافة إلى النص العربي . . وقد وضع السيد محمد الأمين الكيلاني شرحاً عليه - استجابة لطلب بعض الأعداء - وقدم شرحه بكلامٍ مطولٍ حول مناقب الإمام الجيلاني ونسبه الشريف، وانتهى منه بفصل في فضل الصلاة على النبي، منتقداً ما درج عليه بعض النساخ في كتابة هذه الصلاة بقولهم (صلعم) وفي الطرة الأخيرة للشرح: نُجز في يوم السبت أول شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٧٢ من هجرته ﷺ^(١).

* * *

وهناك بعض الأوراد والأحزاب المتفرقة في المخطوطات - وبعض المطبوعات - منها ما هو مُقتطعٌ من الأوراد والأحزاب السابقة، ومنها ما هو مستقل . . وكما يقول البستاني، فقد نُسبت إلى الإمام الجيلاني من الأوراد والأحزاب: ما لا يصح نسبته كله إليه^(٢).

الصلوات والأدعية:

يقتصر المعنى الشائع للصلاة على كونها الركن الأساسي الذي يقوم عليه الدين، من الركوع والسجود الذي يسبقه الوضوء . . لكن لهذه اللفظة عدة معانٍ غير ذلك، منها (التعظيم، الرحمة، الرضوان، الدعاء، الاستغفار، التسبيح) وينقل ابن منظور قول الأعرابي: الصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقات - الملائكة والإنس والجن - القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، وأما الصلاة من الطير والهوام فهي التسبيح^(٣).

(١) سفينة القادرية ص ٩٦، ١٦١ .

(٢) دائرة معارف البستاني (دار المعرفة - بيروت) الجزء الحادي عشر ص ٦٢١ .

(٣) لسان العرب ٤٦٩/٢ وما بعدها .

وفيما يتعلق بمؤلفات الإمام الجيلاني، فالمراد بالصلوات هي الصيغ الشريفة التي كان يصلي بها الإمام على النبي ﷺ وهي الصيغ التي حظيت باهتمام القادرية البالغ، إما للصلاة على النبي من فضل مشهور^(١).

وهذه الصلوات تشتمل على أدعية مأثورة كان الإمام الجيلاني يتوجه بها إلى الله. وقد كانت للإمام الجيلاني نظرتة الخاصة للدعاء، فهو حين سُئل عن الدعاء قال: الدعاء على ثلاث درجات (تعريض - تصريح - إشارة) فالتعريض ما يلفظ به، والتعريض ما يكون في دعاء مضمرة، والإشارة ما تكون في فعل مخفي... فمن التعريض قول النبي ﷺ (لَا تَكَلِّمْنَا إِلَى تَذْيِيرِ أَنْفُسِنَا) ومن الإشارة قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) مشيراً بذلك إلى الرؤية؛ ومن التصريح قول موسى عليه السلام (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)^(٢).

وقد تضمنت صلوات الإمام الجيلاني على النبي هذه الدرجات الثلاث للدعاء، ففيها التعريض والتصريح والإشارة. ولما كان القادرية يعظمون كل ما يؤثر عن الإمام الجيلاني فقد اهتموا أيضاً بأدعيته - خاصة أن الدعاء مندوب إليه في جملة آيات وأحاديث نبوية، منها قوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣).

وبرغم أن صلوات الإمام الجيلاني وأدعيته، كانت في الغالب مقدمة أو خاتمة لأوراده وأحزابه إلا أن القادرية جمعوا هذه الصلوات والأدعية في مجاميع مستقلة، ووضع بعضهم عليها شروحات؛ ويمكن أن نشير إلى ذلك إجمالاً في مجموعتين هما:

(١) انظر الأخبار الواردة في فضل الصلاة على النبي في: صحيح البخاري، باب الدعوات - سنن أبي داود، كتاب الصلاة - سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة - مسند الدارمي، كتاب الصلاة.
(٢) قلائد الجواهر ص ٥١.
(٣) سورة غافر، آية ٦٠.

١ - الصلاة الصغرى :

وهي الصلاة التي اختتم بها الإمام الجيلاني حزيه المعروف باسم (حزب الرجاء والالتجاء) وصيغتها كالتالي : اللهم صل على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره؛ عدد من مضى من خلقك، ومن بقي، ومن سعد منهم ومن شقي، صلاة تستغرق العد وتحيط بالحد، صلاة لا غاية لها ولا منتهى . . الخ .

وقد نسب بعضهم هذه الصلاة إلى الصوفي الشهير ابن سبعين (أبو محمد عبد الحق الأندلسي المتوفى سنة ٦٦٩ هجرية) وذلك ما يرفضه القادرية بشدة، باعتبار ابن سبعين متقدماً على الإمام الجيلاني زمنياً، وأنها ثابتة من قبله في حزب الإمام^(١).

٢ - الصلوات التسع :

وهي مجموعة صلوات وأدعية أخرى مأثورة عن الإمام الجيلاني . وهي لا تخرج عن الإطار الذي يجمعها مع الصلاة السابقة، بحيث تعرف جميعاً باسم (الصلوات العشر المشهورة عند القادرية . . مع ملاحظة أن هناك صلاة أخرى تعرف باسم (الصلاة الكبرى) وهي التي ذكرناها ضمناً عند الكلام عن (ورد الصلاة الكبرى) في معرض حديثنا عن أوراد الإمام وأحزابه - وتوجد لهذه الصلاة الكبرى نسخة مخطوطة بمجاميع المدرسة العُمريّة بالظاهرية تحت رقم ٣٨٧٨ عام .



وقد وضع الصوفية المتأخرون شروحات مطولة على هذه الصلوات القصار، أفاضوا فيها في عرض كل دقيقة ورقيقة، وفصلوا الكلام فيما أوجزه الإمام بصلواته وأدعيته . . وأشهر هذه الشروح شرحان :

(١) محمد المنلا: الصلوات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى (سنية القادرية) ص ١٧ .

- شرح الشيخ عبد الغني النابلسي، بعنوان (كوكب المباني وموكب المعاني في شرح صلاة الجيلاني) وتوجد منه نسخة خطية بالأزهر (برقم ٨٧٣ خصوصية، حلیم) ونسخة أخرى بالإسكندرية (برقم ٢٢٧٦ ج، فوائد وأدعية)^(١).

- شرح الشيخ محمد بن أحمد المنلا، بعنوان (الصلوات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى والذخيرة الكبرى) ويليهِ (شرح تسع صلوات للغوث الأعظم) وقد انتهى منهما الشارح في جمادى الأولى سنة ١٢٠٤ هجرية، وكلاهما مطبوع في سفينة القادرية.

المؤلفات المنحولة:

هناك ما لا حصر له من المؤلفات المنسوبة إلى الإمام الجيلاني، ذكرتها المصادر التي ترجمت له وأثبتتها فهارس المكتبات الخطية. وقد ثبت لدينا بنقدها أنها ليست للإمام الجيلاني. . فمن هذه المؤلفات:
أسرار الإسراء:

وهو كتاب مخطوط يقع فيما يقرب من خمسين ورقة من القطع المتوسط، توجد له نسخ عديدة منها نسخة بمكتبة الشيخ إبراهيم حلمي القادري. وقد قطعنا بعدم نسبة هذا الكتاب نظراً لاستشهاد مؤلفه بأقوال جلال الدين الرومي، الذي ولد سنة ٦٠٤ - وتوفي سنة ٦٧٢ - أي أنه ولد بعد وفاة الإمام الجيلاني بنصف قرن من الزمان.

وقد جاء في الطرة الأخيرة من المخطوط (سميتها ببيان أسرار الطالبين) وهو العنوان الذي نسبه صاحب كشف الظنون إلى: أبي المحاسن

(١) ذكر بروكلمان نسختين من هذا الشرح، إحداهما بمكتبة سليم أغا (برقم ٢٨٣/٤) والأخرى بالموصل (برقم ١٤٢/٣١).

يوسف بن عبد الله الكوراني العجمي ؛ وهو عنوان لمخطوطة بيرلين برقم (٣٠٦ أهلوارد) منسوبة لسراج الدين الميلاني الروسي . وقد طبعت هذه المخطوطة طبعة مستقلة على الحجر سنة ١٢٧٦ هجرية بعنوان: رسالة في التصوف للشيخ البالي .

سر الأسرار :

وهو مخطوط اعتادت الفهارس أن تنسبه للإمام الجيلاني ، توجد له نسخة بدار الكتب المصرية بعنوان (سر الأسرار في معرفة الجواهر والأحجار) محفوظة تحت رقم ٥١ طبيعيات تيمور، جاءت نسبه إلى الإمام الجيلاني على ورقة العنوان . وقد ظننا أول الأمر أن كلمتي (الجواهر والأحجار) إشارة إلى معنى صوفي معين ، لكننا بمطالعة الكتاب وجدنا ذلك لا يتضمن أية إشارات! فهو كتاب في خواص الأحجار الكريمة ، يقترب كثيراً من الكتاب الشهير لأحمد بن يوسف التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار .

وعادةً ما تنسب الفهارس هذا الكتاب للإمام الجيلاني بعناوين مختلفة ، فنجده عند بروكلمان بعنوان (سر الأسرار ومعدن الأنوار)^(١) وعند البستاني بعنوان (جواهر الأسرار ولطائف الأنوار)^(٢) أما عمر رضا كحالة فقد ذكر هذا المؤلف بعنوان آخر هو (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار)^(٣) وقد ذكر السامرائي أنه طُبع باللغتين العربية والأردية في باكستان بعنوان : سر الأسرار في التصوف^(٤) . . وهي الطبعة التي لم نتمكن من مطالعتها .

الفيوضات الربانية :

وهو كتابٌ مشهورٌ اعتادت بعض المراجع أن تنسبه للإمام الجيلاني ،

(١) Gieschichte der Arabischen Literature II. p.779.

(٢) دائرة معارف البستاني ١١/٦٢١ .

(٣) معجم المؤلفين ٥/٢٠٧ .

(٤) الشيخ عبد القادر الكيلاني ص ١٦ .

كما فعل ميزرا علي مُدرّس^(١)؛ مع أن الكتاب مجموع لأورادٍ وقصائد ومناقب للإمام الجيلاني وغيره من أقطاب التصوف، قام بجمعه الشيخ إسماعيل بن محمد سعيد القادري . . وتوجد من هذا الكتاب الجامع عدة طبعات بالقاهرة وبيروت .

تفسير القرآن :

وهو مخطوطٌ في مجلدين أشارت عدة مصادر إلى وجود نسخة كاملة له في مكتبة رشيد كرامة مفتي طرابلس - مؤرخة بسنة ٦٢٢ هجرية - وأخرى ناقصة بالدائرة الهندية . . ولم يُشر الإمام الجيلاني في مؤلفاته الأخرى إلى هذا التفسير من قريبٍ أو بعيدٍ، ولم يُشر إليه أيضاً من ترجموا للإمام .

مراتب الوجود :

وهو واحد من المؤلفات التي نسبها البغدادي إلى الإمام الجيلاني^(٢)، والذي يبدو أن الأمر قد اختلط عليه لتشابه اسمي الإمام الجيلاني وعبد الكريم الجيلي، حيث أن الأخير هو مؤلف هذا الكتاب المعروف باسم : مراتب الوجود وحقيقة كل موجود .

* * *

وهناك عدة مؤلفات منسوبة إلى الإمام الجيلاني، انفردت مصادر عديدة بإشاراتٍ مفردةٍ إليها، ومعظمها إما مخطوط أو مفقود . . ومن هذه المؤلفات :

- الكبريت الأحمر .

- جوهرة الكمال .

- مختصر في المعادن .

- جواهر الرحمن .

(١) ريحانة الأدب (تبريز) جلد بنجم ص ٢٥٣ .

(٢) هدية العارفين ١/٥٩٦ .

- دُرر المعاني^(١).
- يواقيت الحكم.
- معراج لطيف المعاني.
- تُحفة المتقين وسبيل العارفين^(٢).
- المواهب الرحمانية.
- تنبيه الغبي إلى رؤية النبي.
- رُدُّ الرافضة^(٣).

وهذه المؤلفات، وغيرها مما ينسبه المفهرسون للإمام الجيلاني، تشير إلى مدى الاضطراب الواقع حول آثاره. وهو الاضطراب الذي كان سببه الأول: خراب مدرسة الإمام الجيلاني عدة مرات. . عند سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦ هجرية، وعند احتلال الصفويين لها بقيادة إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤ هجرية، وبقيادة عباس الصفوي بعد ذلك بسنوات، وعند غرق بغداد سنة ١٢٤٦ هجرية. ولولا ذلك، لظل تراث الإمام محفوظاً بمدرسته، ولكان تحديد مؤلفاته - بدقة تامة - عملاً ميسوراً.

ترجمات الجيلاني:

لم تحظ شخصية صوفية في الإسلام، بمثل ما حظي به الإمام من اهتمام المؤرخين والمترجمين. فقد توقّف عنده كل مؤرخ تعرّض للمرحلة التي عاش فيها، وأورد عنه خبراً - قد يطول أو يقصر - مشفوعاً بتقدير عميق.

وبالإضافة إلى ذلك، اهتمّ بعضهم بالكتابة عن الإمام، من حيث كونه واحداً من الأقطاب الأربعة المُنتسبين لآل البيت^(٤). وذلك ما نجده في (فرحة

(١) هذه المؤلفات، ذكرها بروكلمان. وقد أشار التادفي إلى كتاب (درر المعاني) على أنه مما جمعه ابن الجوزي من كلام الجيلاني. . راجع: قلائد الجواهر ص ٢١.
 (٢) المؤلفات السابقة ذكرها البغدادي وحاجي خليفة.
 (٣) المؤلفات السابقة ذكرها السامرائي.
 (٤) هم: الرفاعي - الجيلاني - البدوي - الدسوقي.

الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب) للصيادي (نشر المحاسن الغالية) لليافعي
(طبقات الشرنوبية). . . وغير ذلك من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة.

وثمة مؤلفات أخرى، اختصت بالترجمة للجيلاني. فلما رأينا هذا القدر
الوافر من هذه الترجمات المفردة، رأينا وجوب التوقف عندها، وحصر ما
عرفناه منها^(١). . . مع الإشارة إلى أن ثمة أمرين يجمعان بين هذه الترجمات
جميعاً، أولها تقديرها البالغ للإمام الجيلاني، والثاني أنها لا تخلو من ذكر
الكرامات. وهذه التراجم هي:

- ١ - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، للشطنوفي.
- ٢ - قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، للتادفي^(٢).
- ٣ - شمس المفآخر (ذيل قلائد الجواهر) للعلامة محمد بن محمد البخشي
الحلبي الصوفي.
- ٤ - خلاصة المفآخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر، لابن أسعد
اليافعي^(٣).
- ٥ - عقد جواهر المعاني في مناقب الشيخ الجيلاني، للشيخ أحمد بن
عبد القادر. . . جاء في خاتمته: هذا كتاب مرسوم بنزهة المناظر وبهجة
الخاطر^(٤).
- ٦ - تحفة الأبرار ولوامع الأنوار في مناقب السيد عبد القادر وذريته الأكابر

(١) اعتمدنا في ذكر هذه القائمة الخاصة بتراجم الإمام، على ما رأيناه متفرقاً، وما أشارت إليه
المصادر التي بين أيدينا. . . بالإضافة إلى ما ذكره ناسخ الرسالة الغوثية في خاتمة نسخته
(مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف) من المؤلفات والتراجم المفردة الخاصة بالإمام
الجيلاني.

(٢) راجع المزيد عن هذين الكتابين ومؤلفيهما في مقدمة التحقيق النقدي لديوان عبد القادر
الجيلاني.

(٣) توجد من هذا الكتاب مخطوطتان، الأولى بالإسكندرية (برقم ٧٦٥٩ ج، تصوف) والأخرى
بالأزهر (برقم ١٢٠١، رواق المغاربة).

(٤) مخطوط الإسكندرية رقم ١٦٠٩ ب، تصوف) الورقة الأخيرة.

- الأخيار، للسيد علاء الدين الجيلاني نقيب أشرف حُماة وشيخ الشيوخ في البلاد الشامية.. وفي هذا الكتاب ذكرٌ لأخبار الإمام الجيلاني وذريته إلى سنة ١١٠٠ هجرية، وتوجد منه نسخة بمكتبة عباس عزاوي الخاصة (برقم ٨٩٤٣) مجهولة المؤلف (١).
- ٧ - ضم الأزهار (ذيل تحفة الأبرار..). لمفتي حُماة وشيخ السجادة القادرية، محمد سعدي الأزهري الجيلاني.
- ٨ - نزهة خاطر الفاتر في ترجمة سيدي عبد القادر، لمُلاً علي بيه سلطان محمد القادري.. مخطوط (٢).
- ٩ - بستان الأصاغر والأكابري في ترجمة الشيخ عبد القادر، لشيخ قادرية تطوان: عبد الحي القادري المغربي.. مخطوط (٣).
- ١٠ - رياض البساتين في أخبار الشيخ عبد القادر محيي الدين، للشيخ محمد الأمين بن أحمد الكيلاني، فرغ منه سنة ١٢٦٣ هجرية.. مخطوط (٤).
- ١١ - الشجرة النورانية بطريقة القادرية، للشيخ عبد القادر القادري.. مخطوط (٥).
- ١٢ - الجَنِّي الدَّانِي في نبذة من مناقب القطب عبد القادر الجيلاني، للعلامة جعفر بن حسن البرزنجي، مفتي الشافعية بالمدينة المنورة (٦).
- ١٣ - دُرُّ المفاخر في مناقب سيدي عبد القادر، للسيد عبد القادر العيدروسي اليمني.

(١) فهرس مخطوطات عباس عزاوي (مجلة المورد، مجلد ١٣، العدد الثالث، ص ٢٨٩).

(٢) انظر: مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف.

(٣) الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي (مقالة بمجلة صوت الحق - وزارة الأوقاف بالمغرب) ٥٠، ٥١.

(٤) معجم المؤلفين ٦٩/٩، ٧٠.

(٥) توجد له نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٢٧٨ مجاميع (رصيد عام).

(٦) انظر: مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج تصوف.

- ١٤ - درر الجواهر في مناقب سيدي عبد القادر، للشيخ المحدّث الحافظ،
سراج الدين عمر أبي حفص الأنصاري الشافعي .
- ١٥ - أنوار الناظر في معرفة أخبار الشيخ عبد القادر، للشيخ الإمام أبي بكر
عبد الله بن نصر حمزة البكري الصديقي البغدادي^(١).
- ١٦ - نزهة الناظر في أخبار الشيخ عبد القادر، للفقير المحدّث أبي محمد
عبد اللطيف بن هبة الله الهاشمي البغدادي النُرسِي . . وهو ممن روى
عنهم صاحب البهجة^(٢).
- ١٧ - غبطة الناظر في أخبار سيدنا عبد القادر، لشهاب الدين أحمد بن حجر
العسقلاني .
- ١٨ - روض الزاهر في ترجمة السيد عبد القادر، لابن حجر العسقلاني .
- ١٩ - روضة الناظر في ترجمة سيدنا الغوث عبد القادر، للعلامة الفيروزآبادي
صاحب القاموس المحيط .
- ٢٠ - روض النواظر في مناقب سيدي عبد القادر، للإمام الزاهد الأورع،
محمد بن سعيد بن ذريع الزنجاري .
- ٢١ - مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني ، للشيخ عبد الرحمن الطالباي .
- ٢٢ - مناقب الشيخ عبد القادر، لقطب الدين اليونيني^(٣).
- ٢٣ - مناقب سيدي عبد القادر، لمؤلف مجهول^(٤).
- ٢٤ - فضائل عبد القادر الجيلاني ، لمؤلف مجهول^(٥).
- ٢٥ - السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، للعلامة

(١) انظر: بهجة الأسرار ص ١٠٩ .

(٢) مخطوط الإسكندرية رقم ٣٠٢٥ ج، تصوف .

(٣) هذا الكتاب وسابقه، مذكوران بقائمة المؤلفات التي تبحث في مناقب الشيخ عبد القادر
الجيلاني بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد .

(٤) توجد منه نسخة خطية بالمعهد الأحمدى بطنطا (برقم ٢١٦/٦٨٣) وهي ناقصة من أولها،
مكتوبة بخط جميل مشكول، مؤرخة بثامن عشر شعبان سنة ١٠٠٥ هجرية .

(٥) توجد منه نسخة خطية بالمعهد الأحمدى (برقم ٢١٦/٦٨٤) حالتها سيئة، كتبت بتاريخ
١٢٦٩ هجرية .

محمد المكي بن مصطفى بن عزوز^(١).

٢٦ - الإمام عبد القادر الجيلاني، لأبي الحسن النووي^(٢).

٢٧ - الشيخ عبد القادر الكيلاني، للشيخ يونس السامرائي^(٣).

٢٨ - الشيخ عبد القادر الكيلاني، للشيخ عبد الغفار العباسي^(٤).

وبالإضافة إلى هذه الترجمات المفردة للإمام الجيلاني - التي لا ندعي أننا حصرناها جميعاً - هناك بعض القصائد المطولة في مدحه، ورد بعضها في (سفينة القادرية). ولعل أشهر هذه القصائد، القصيدة المطولة المعروفة بعنوان (قصيدة الباز الأشهب) لعبد الباقي العمري، والتي فرغ منها سنة ١٢٥٥ هجرية - ويوجد عليها شرح لشهاب الدين الألووسي بعنوان (الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب) وهو مخطوط برقم ٩٠٩١ بمكتبة عباس عزاوي^(٥).

(١) طبع هذا الكتاب بتونس سنة ١٣١٠ هجرية.

(٢) طبع هذا الكتاب بالقاهرة - دار المختار الإسلامي ١٩٧٤.

(٣) طبع ببغداد (مطبعة الأمة) عدة طبعات.

(٤) طبع ببغداد (على نفقة مؤلفه) بدون تاريخ.

(٥) فهرس مخطوطات عباس عزاوي (مجلة المورد، المجلد ١٥، العدد الثالث)، ص ١٨٩.

وفاة الإمام الجيلاني

يبدأ ابن العماد الحنبلي تأريخه لسنة ٥٦١ هجرية، بعبارة افتتاحية تقول: «فِيهَا ظَهَرَ بَبْغَدَادَ الرَّفُضُ وَالسُّبُّ وَعَظُمَ الْخَطْبُ..»^(١) وفي هذه السنة، توفي الإمام الجيلاني؛ بعد أن بلغ من العمر واحداً وتسعين عاماً. وقد جمع بعضهم سنوات ولادته ووفاته وعمره، في بيت شعري واحد، يقول:

إِنْ بَارَأَ اللَّهُ سُلْطَانُ الرَّجَالِ جَاءَ فِي عِشْقٍ وَمَاتَ فِي كَمَالِ

وذلك لأن كلمة (عشق) عددها بحساب الجُمَّل^(٢) = ٤٧٠، وهو تاريخ مولد الإمام. وكلمة (كمال) عددها = ٩١، وهو عدد سنوات العمر. والكلمتان معاً، حاصل عددهما ٥٦١ وهو تاريخ الوفاة^(٣).

وكانت وفاة الإمام: بعد عتمة ليلة السبت، عاشر ربيع الآخر^(٤).

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ١٩٧/٤.

(٢) حساب الجُمَّل: هو إعطاء كل حرف عدداً معيناً من الأرقام، بحسب التسلسل. وهو من المعارف التي انتشرت بين الصوفية بعد القرن السادس الهجري.

(٣) قلائد الجواهر ص ١٧٣ - فتوح الغيب ص ١٨٠؛ وانظر الترجمة الفارسية لهذا البيت الشعري في: ربحانة الأدب، جلد بنجم ص ٢٥٤.

(٤) فتوح الغيب ص ١٧٨.

وكان قد مرض قبل ذلك بعدة أيام، حتى كانت هذه الليلة التي اجتمع فيها أولاده من حوله، ليستمعوا آخر أقواله وهو على أعتاب لقاء الحق.. فقال:

أَنَا لُبُّ بِلَا قَشْرٍ..
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ،
بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
فَلَا تَقِيسُونِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا تَقِيسُوا أَحَدًا عَلَيَّ.

وحين سأله ولده عبد العزيز عن مرضه، قال:

لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ عَن شَيْءٍ
أَنَا أَتَقَلَّبُ فِي عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
إِنْ مَرَضِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَعْقِلُهُ إِنْسٌ وَلَا جِنٌّ وَلَا مَلَكٌ،
مَا يَنْقُضِي عِلْمَ اللَّهِ بِحُكْمِ اللَّهِ!
الْحُكْمُ يَتَغَيَّرُ وَالْعِلْمُ لَا يَتَغَيَّرُ
يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ.

* * *

وفاضت روح الجيلاني، وطار باز الله الأشهب في رحلته الأخيرة، وودّع الدنيا إلى العُليا.. لكن ذكره بقي في الأرض إلى يومنا هذا.

.. ترك الإمام تسعة وأربعين من الأبناء (منهم سبعة وعشرون ذكوراً، والباقي إناث) كما ترك عشرات المريدين الصادقين. فعمل الأبناء والمريدون على إحياء ذكره، واستمرت (الطريقة القادرية) ماثت الأعوام، وسارت -معظم الوقت- على القواعد التي رسمها مؤسسها، وتدفتت بين ربوع العالم الإسلامي؛ حتى صارت اليوم: أوسع الطرق الصوفية انتشاراً في العالم الإسلامي.

وإذا كنا فيما سبق قد حاولنا تقديم لوحة حياة الإمام الجيلاني، وتبّعنا المنحنيات الروحية في حياته وتجربته الصوفية. فإننا سنعود في بحثٍ آخر، لتناول الأسس العامة للطريق الصوفي عند عبد القادر الجيلاني، ونستعرض انتشار طريقته وفروعها بمصر.

مراجع البحث

- ١ - إبراهيم حلمي القادري: القرب في محبة العرب (طبعة الإسكندرية ١٩٦٠).
- ٢ - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (تحقيق نزار رضا - بيروت).
- ٣ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ (المطبعة التجارية الكبرى - القاهرة).
- ٤ - ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل (دار الكتب العلمية - بيروت).
- ٥ - ابن تيمية: شرح كلمات من فتوح الغيب (ضمن: جامع الرسائل، تحقيق د. محمد رشاد سالم - مطبعة المدني، جدة).
- ٦ - ابن تيمية: رسالة في المعجزات والكرامات وخوارق العادات (تحقيق محمود بن إمام - مكتبة الصحابة بطنطا ١٤٠٦ هـ).
- ٧ - ابن تَغْرِي بَرْدِي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤).
- ٨ - ابن جُنِّي: الخصائص (تحقيق محمد علي النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة).
- ٩ - ابن الجَوْزِي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدرآباد ١٣٥٨ هـ).

- ١٠ - ابن حَجَر: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (الهيئة المضرية العامة للكتاب).
- ١١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة ١٢٧٥ هـ).
- ١٢ - ابن عَرَبِي: الفتوحات المكية (طبعة دار الكتب العربية - القاهرة، الطبعة الكاملة، بدون تحقيق).
- ١٣ - ابن عَرَبِي: الفتوحات المكية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق د. عثمان يحيى).
- ١٤ - ابن عَطَاء الله: الحكم العطائية بشرح الشيخ زُرُوق (طبعة دار الشعب ١٤٠٥ هـ، تحقيق د. عبد الحلیم محمود - د. محمود بن الشريف).
- ١٥ - ابن العِمَاد: شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب (مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ).
- ١٦ - ابن عِنَبَة: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (طبعة النجف).
- ١٧ - أبو زَيْنَان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام (دار الكتب الجامعية ١٩٨٥).
- ١٨ - أبو العِلا عفيفي (دكتور): الملامتية والصوفية وأهل الفتوة (مطبوعات الجمعية الفلسفية المصرية ١٩٤٨).
- ١٩ - أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة).
- ٢٠ - البريقكاني (نور الدين): شرح حِكْم ابن عطاء الله، المسمى تلخيص الحِكْم (الناشر العربي ١٩٨٣، تحقيق محمد الكزني).
- ٢١ - البُستاني: دائرة معارف البستاني (دار المعرفة - بيروت).
- ٢٢ - البيروني (أبو الريحان): تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة (عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية).
- ٢٣ - التادفي: قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر (المطبعة العثمانية ١٣٠٣ هـ).

- ٢٤ - التفتازاني (دكتور): مدخل إلى التصوف الإسلامي (دار الثقافة ١٩٨٣).
- ٢٥ - التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون (دار قهرمان - إسطنبول).
- ٢٦ - جعفر صادق سهيل: عبد القادر الجيلاني ومذهبه الصوفي (رسالة ماجستير بإشراف د. محمد كمال جعفر - جامعة القاهرة).
- ٢٧ - جلال الدين الرومي: المثنوي، ترجمة د. محمد كفاي (المكتبة العصرية، بيروت).
- ٢٨ - الجيلاني (الإمام عبد القادر): الغنية لطالبي طريق الحق، تحقيق فرج توفيق الوليد (مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨).
- ٢٩ - الجيلاني: فتوح الغيب (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة - الطبعة الثانية).
- ٣٠ - الجيلاني: الفتح الرباني (البابي الحلبي - الطبعة الأخيرة).
- ٣١ - الجيلاني: ديوان عبد القادر الجيلاني، تحقيق د. يوسف زيدان (مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة).
- ٣٢ - الجيلاني: جلاء الخاطر في الظاهر والباطن (مخطوط جامعة القاهرة، رقم ١٥٧٤١ / تصوف).
- ٣٣ - الجيلاني: حزب التضرع والابتهاال (مخطوط جامعة القاهرة، رقم ١٥٦٨٧ / تصوف).
- ٣٤ - الجيلاني: حزب السريانية (مخطوط مكتبة مسجد أبي العباس، رقم ١٠٥٦ / عام).
- ٣٥ - الحلاج: أخبار الحلاج، نشرة ماسينون وكراوس (باريس ١٩٣٦).
- ٣٦ - الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان (تهران ١٣٩٢ هـ).
- ٣٧ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١ هـ).

- ٣٨ - الدُميري: حياة الحيوان الكبرى (دار إحياء التراث العربي، بيروت).
- ٣٩ - السامرائي (يونس): الشيخ عبد القادر الكيلاني (مطبعة الأمة - بغداد، الطبعة الثالثة).
- ٤٠ - سبُط ابن الجَوَزي: مِرآة الجَنَان وعبرة اليقظان (القاهرة، بدون تاريخ).
- ٤١ - السُّلَمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية، بعناية أحمد الشرباصي (دار الشعب ١٣٨٠).
- ٤٢ - السُّهروودي: عَوَارِف المَعَارِف، المجلد الخامس من إحياء علوم الدين (دار الندوة الجديدة، بيروت).
- ٤٣ - الشَّطْنُوني: بَهجة الأسرار ومَعْدِن الأنوار (دار الكتب العربية، القاهرة ١٣٣٠).
- ٤٤ - الشَّيبي (د. كامل): الصُّلَّة بين التصوف والتشيع (دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية).
- ٤٥ - طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة (حيدرآباد - الهند).
- ٤٦ - الغزالي (الإمام أبو حامد): إحياء علوم الدين (دار الندوة الجديدة، بيروت).
- ٤٧ - القُشيري: الرسالة القشيرية (البابي الحلبي ١٣٧٩ هـ).
- ٤٨ - الكَلَّاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق د. محمود النواوي (مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية).
- ٤٩ - محمد المَنَلا: الصلوات الكبرى في شرح الصلاة الصغرى (ضمن كتاب: السفينة القادرية).
- ٥٠ - ماك دونالد: مادة (حزب) بدائرة المعارف الإسلامية. . الترجمة العربية (دار الشعب).
- ٥١ - مؤلف مجهول: ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأولاده (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٠٥٤٥ ب).

- ٥٢ - مؤلف مجهول: كتاب المناقب (مخطوط المعهد الأحمدى بطنطا، رقم ٦/٦٨٣).
- ٥٣ - ميزرا على مدرّس: ريحانة الأدب في تراجمه المعروفين بالكنية واللقب (تبريز - چنچانة سفق).
- ٥٤ - النَّابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (مخطوط مصور بعناية د. أحمد الهريدي، مصر).
- ٥٥ - النَّبهاني (علي بن يوسف): جامع كرامات الأولياء (دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ).
- ٥٦ - النَّشار (د. علي سامي): نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (دار المعارف بمصر - الطبعة الثامنة).
- ٥٧ - النَّووي (يحيى بن شرف): بستان العارفين، تحقيق محمد الحجار (دار الصابوني - دمشق، بدون تاريخ).
- ٥٨ - الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة د. إسعاد قنديل (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٤ هـ).
- ٥٩ - الهروي الأنصاري: منازل السائرين (البابي الحلبي ١٩٦٩).
- ٦٠ - اليافعي: خلاصة المفاهيم في ترجمة الشيخ عبد القادر (مخطوط الأزهر، رقم ١٢٠١).
- ٦١ - اليافعي: نُشر المحاسن الغالية في فضل الصوفية ذوي المقامات العالية (البابي الحلبي ١٣٨١ هـ).
- ٦٢ - يوسف زيدان (دكتور): شعراء الصوفية المجهولون (مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩١).
- ٦٣ - يوسف زيدان: الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت).
- ٦٤ - براون: Art (Al-Djilani) in, The Encyclopedia of Islam
- ٦٥ - بروكلمان: Geschichte der Arabischen Literature (Leiden 1937).

الفهرس

الإهداء ٥

مقدمة ٩

الفصل الأول

مفهوم التصوف

أصل التسمية ١٤

طبيعة التصوف وتعريفاته ١٦

التصوف عند الجيلاني ٢٢

الفصل الثاني

نشأة الجيلاني

اسمه وألقابه ٢٥

نسبه الشريف ٣٠

مولده ونشأته ٣٤

الفصل الثالث

الخروج إلى بغداد

الرحلة ٣٩

الفقيه ٤٢

الملامتي ٤٧

المجذوب ٥٢

الفصل الرابع

شيوخ الطريق

الشيخ حماد الدباس ٥٦

الشيخ أبو سعد المُخرَّمي ٦٠

عليّ بن الهيتي ٦٣

شهاب الدين السهروردي ٦٦

الفصل الخامس

مرتبة الولاية والقضية

بدو الشأن ٧١

إحياء الدين ٧٤

الكرامات ٧٧

الفتاوى ٨١

الفصل السادس

أسلوب الجيلاني ومؤلفاته وترجماته

أسلوب الإمام ٨٦

الغنية ٨٩

المجالس ٩٠

الأوراد والأحزاب ٩٣

الصلوات والأدعية ٩٨

المؤلفات المنحولة ١٠١

ترجمات الجيلاني ١٠٤

الخاتمة: وفاة الإمام ١٠٩

مراجع البحث ١١٣

أعمال الدكتور يوسف زيدان

أولاً: المؤلفات

- عبد الكريم الجدلي ، فيلسوف الصوفية
- الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
- عبد القادر الجيلاني ، باز الله الأشهب (دار الجيل - بيروت)
- الطريق الصوفي ، وفروع القادرية بمصر (دار الجيل - بيروت)
- شعراء الصوفية المجهولون

ثانياً: الدراسة والتحقيق

- المقدمة في التصوف ، لأبي عبد الرحمن السُّلَمي
- قصيدة النادرَات العينية ، لعبد الكريم الجيلي - مع شرح النابلسي (دار الجيل - بيروت)
- ديوان عبد القادر الجيلاني
- ديوان عفيف الدين التلمساني
- شرح فصول أبقراط ، لابن النفيس

- رسالة الأعضاء، لابن النفيس
- المختصر في علم الحديث النبوي، لابن النفيس
- المختار من الأغذية، لابن النفيس

ثالثاً: تحت الطبع

- شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق)
- الكهف والرقيم، لعبد الكريم الجيلي (دراسة وتحقيق)
- شخصية الخضر في التراث الإسلامي (تأليف)
- شرح كليات القانون، لابن النفيس (دراسة وتحقيق)
- الوريقات في المنطق، لابن النفيس (دراسة وتحقيق)
- معجم مصطلحات ابن النفيس الطبية (دراسة وتحقيق)